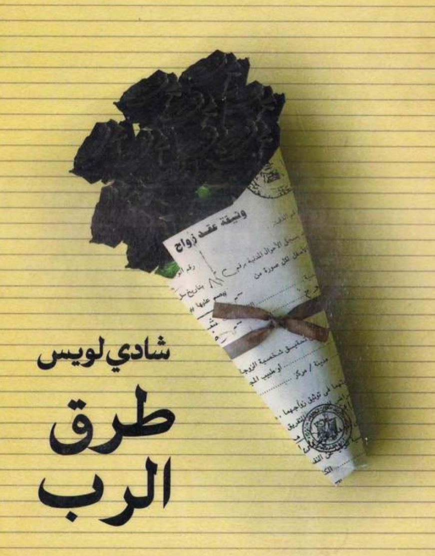


شادي لويس

طرق الرب

رواية

طرق الرب
رواية
الطبعة الأولى: ٢٠١٨
رقم الإيداع: ٢٠١٨/١٩٣٢٥
الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٠٣-٠٨١-٥
الغلاف: حاتم سليمان

الكتب خان للنشر والتوزيع ®
١٣ شارع ٢٥٤ - دجلة - المعادي - القاهرة.
تليفون: ٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩+ - ٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨+
بريد إليكتروني: info@kotobkhan.com
موقع إليكتروني: www.kotobkhan.com



شادي لويس

طــــرق الـــرب

روايـــة



فهرسة أثناء النشر
الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المصرية

لويس، شادي
طرق الرب : رواية/ تأليف شادي لويس. ـ ط١. – القاهرة: الكتب خان للنشر والتوزيع، ٢٠١٨
١٩٢ ص، ٢٠ سم
تدمك: ٥– ٠٨١ – ٨٠٣ – ٩٧٧ – ٩٧٨
١ – رواية
أ- العنوان
رقم الإيداع: ١٩٣٢٥ الطبعة الأولى ٢٠١٨

"الآباء أكلوا حصرمًا وأسنان الأبناء ضرست. "

(إرميا ٢٩ : ٣١)

إهـداء

إلي الكيستس ومحمد هاني

١

"منك لله يا جعفر"، كررت الجملة لنفسي عدة مرات، قبل أن تقاطع الست الوالدة التعويذة التي التصقت في ذهني منذ الصباح.

"قوم البس، المعاد الساعة ثلاثة".

لم تعر المقدسة "مرية" الكثير من الاهتمام لاحتجاجي بأن الساعة ما زالت الثانية، والمسافة لا تأخذ أكثر من عشر دقائق مشيًا على الأقدام. غاصت الوالدة برأسها في خزانة الملابس، التي لم تحتوي على الكثير بأي حال، وأخرجت الثلاث بنطالات التي أملكها، وقميصين مخصصين للأفراح والمناسبات الرسمية. وبإشارة خفيفة منها، فهمتُ أن عليَّ التدحرج إلى جانب السرير الأيمن، لتضع البنطالات على الجانب الآخر من حافته. حسمت هي المقارنة بين القميصين اللذين تفحصتهما عن بعد، لصالح الأزرق الفاتح ذو المربعات، وبنبرةٍ آمرة تمتمت إلى نفسها: "بلاش السادة، عشان رسمي قوي".

انسحبت الوالدة من الغرفة، تاركة لي فرصة الرجوع مرة أخرى للوم جعفر، كان الأمر لا يخلو من لذة في الحقيقة، فما الأسهل من

إلقاء مسؤولية كل ما جرى وما سيجري لنا، على رجلٍ ميت، خاصة إن كنت لا أعرفه، سوى من الصورة الوحيدة التي نملكها له. وحتى هؤلاء الذين أخبروني عن الأساطير القليلة التي سمعتها عنه، ومن بينهم أمي بالطبع، لم يروه، فقد مات قبل أن يولد أكبرهم سنًا بعشرين عامًا على الأقل. وجدتي، الوحيدة التي رأته في طفولتها، لم يترك لها الزهايمر شيئًا من ذاكرتها أو كرامتها، للأسف.

عادت الوالدة إلى الغرفة بعد دقائق قليلة، معلنة عن نيتها البدء في كيّ القميص، مضيفةً أنها طلبت من والدي أن يجد لي أحد بنطالته القماشية ليعيرني إياها، "ماينفعش تروح ببنطلون جينز". أعادت البنطالات إلى الخزانة في عجلة، وبإشارة أخرى، فهمت أن عليَّ مغادرة السرير، حتى تستطيع فرد القميص عليه والبدء في كيِّه. شعرت بقليل من الشفقة عليها، فهي لم تستطع مع كل الجدية التي ارتسمت على وجهها، إخفاء الحيرة التي تنتابها في كل مرة تصدت فيها لمهمة كيِّ الملابس، وهي مرات قليلة بأي حال. كانت قد بدأت في توجيه النصائح، بنبرة هي خليط من الغضب والتوسل: "إنت كبير وفاهم مصلحتك فين، بلاش عِند، وقول لهم اللي عايزين يسمعوه". كانت الابتسامة الساخرة على وجهي، كفيلة بإجبارها على إعادة صياغة جملتها الأخيرة، "ماحدش بيقولك اكدب، قول الحقيقة، بس يعني فيه حاجات تتقال وحاجات ما تتقالش". ناولتني الوالدة القميص نصف المكوي، مضيفة تحذير أخير، فهمته تمامًا، فعليَّ أن أحتفظ بآراء معينة أنا أعرفها جيدًا، لنفسي.

في الساعة الثانية والنصف، غادرت المنزل مضطرًا بعد إلحاح من والدتي، فهي أصرت على أنه من الأفضل لي أن أصل مبكرًا، ولم يكن هناك مبررًا لديّ لمعاندتها. كانت ركبتاي ترتعشان قليلاً، فأنا لم أدخن قبل الموعد بساعتين كاملتين، عملاً بنصيحة الجميع، فرائحة السجائر حتمًا ستترك انطباعًا سيئًا، بل إن صديق مقرب لدوائرهم، قد هاتفني هذا الصباح ليخبرني بأن رائحة التبغ وعلاماته على الأصابع والأسنان، هي أول ما يفتشون عنه، وتلتقطه عيونهم وأنوفهم المدربة جيدًا على تلك المهمة.

تمشيت إلى نهاية شارع "ألفريد" أو "الفريد" كما يطلق عليه البعض، وقفلت راجعًا عدة مرات، حتى أُضيّع الوقت. لكن محاولتي لصرف ذهني عن الموعد المصيري بالتأمل في اسم الشارع -وإن كانت ناجحة لبعض الوقت- لم تستمر طويلاً. فالهمزة على الألف، في أول الاسم، لم تكن شيئًا هينًا، فالوافدين من خارج المنطقة والذين أحيانًا ما قصدوا واحدًا من أبنائها للسؤال عن الطريق، لطالما تم زجرهم لتصحيح الاسم، بإزالة الهمزة أو إضافتها، وأحيانًا بإطلاق أسماء أخرى على الشارع، "تقصد شارع الكنيسة؟"، ومؤخرًا: "شارع الجامع الكبير". لم يحتج التفكير في الاسم ودلالاته في الحي المثير للمشاكل الكثير من الحكمة أو الوقت. سريعًا ما عدت للتفكير في خطة لإدارة الموعد، التحلي بالهدوء، لكن دون إبداء أي علامات على عدم الاكتراث، فأنا لطالما ما سقطت في هذا النوع من الأخطاء. لا داعي للكذب أيضًا،

بعض القصص القصيرة والبريئة عن عيوبي لن تضر، فهم سيبتهجون لسماع بعضها، وغالبًا هذا هو الغرض من اللقاء.

قبل الموعد بخمس دقائق كنتُ واقفًا أمام الباب المعدني الضخم، وعلى بضع خطوات من الكشك الخشبي لجند الأمن الواقف على يمينه عادةً. لم أفهم حقًا، لماذا توقفتُ لدقيقتين مُتفحصًا اليافطة العريضة للمبنى والتي كنت أمر عليها عدة مرات يوميًا في الثماني سنوات الأخيرة، منذ أن انتقلت أسرتنا إلى الحي.

أعدت قراءة اليافطة مرتين أو ثلاث، وكأنني أبتغي التأكد من الوصول إلى المكان الصحيح، أو ربما لم يكن الأمر سوى محاولة مني للتظاهر بالهدوء، والتقاط أنفاسي. فالدخول إلى المبنى الذي لم تطأه قدمي ولو مرة واحدة من قبل، وغالبًا ما تحاشيت المرور بالقرب منه، كان مدعاة في حد ذاته لتوتري. كانت الرجفة قد انتقلت من ركبتي إلى يدي اليمنى كالعادة، وبدأت أشعر ببعض من حبات العرق البارد، والتي تتصبب حين تنخفض نسبة النيكوتين في جسدي إلى مستوى معين. لم يكن الوقت مناسبًا، بالطبع، للتأكد من دقة حساباتي للمدة الزمنية اللازمة لأعراض الانسحاب ومراحلها، والتي كنت قد وصلتُ لمستوى عالٍ من الدقة في تقديرها. فتلك المعرفة الدقيقة التي كنت قد اكتسبتها من عشرات التجارب على نفسي، بالحرمان من التدخين عمدًا، لم يكن لها فائدة بأي حال. فأنا تصديت لمشقتها، لمجرد تمضية ساعات العمل، وصباحات أجازة نهاية الأسبوع الفارغة. كان كل ما يقلقني هو التقلصات التي ستبدأ في الزحف إلى عضلات الوجه في

الساعة القادمة، والتي ربما ستفضح افتعال ابتساميّ، المفترض أن أحتفظ بها معظم الوقت في الموعد المرتقب.

ظهر الرجل أمامي فجأة، في اللحظة التي كنت فيها على وشك الخطو إلى داخل المبنى. وبوثبة واحدة وقف في طريقي. تراجعت خطوة إلى الخلف، على وقع سؤاله الوقح: "أي خدمة يا أستاذا رايح فين؟ بطاقتك؟" لم يكن السؤال غير معتادًا حقًا، خاصة وأنا أعرف أن وجهي غير مألوف هنا. خفف من المهانة الصغيرة التي شعرت بها ملاحظتي لهيئة الرجل. فهو كان يرتدي قميصًا أزرق فاتح تزينه مربعات تشبه قميصي تمامًا، حتى بنطاله كان متسعًا بنفس القدر الذي ظهر عليه اتساع بنطال والدي على خصري النحيل. ابتسمت لنفسي، فهذه المرأة تعرف حقًا ما تفعله. وكان من حسن الحظ أن تلك الابتسامة التي ظهرت على وجهي اعتباطًا، خففت من علامات التنمر على وجه الرجل. لكن العناد الذي نصحتني الوالدة بتفاديه، سرعان ما قفز في وجهي: "هاكون رايح فين يعني، داخل المبنى، ده مكان عام". حسم الرجل جدلنا القصير حول طلبه الاطلاع على بطاقتي الشخصية، بدعوته لجندي الشرطة الواقف على البوابة للتدخل: "يا دفعة، مش عايز يطلع البطاقة". اقتضت الحكمة أن أبرزها، متظاهرًا بأنني أقدمها للجندي في البداية، مع أنه لم يكن من الصعب التخمين أنه غالبًا أُميّ. ثم قدمتها للرجل في استسلام. ارتخت قسمات الرجل سريعًا بعد تفحصها، "اتفضل يا باشمهندس، دي إجراءات لازم نعملها، أنت عارف ظروف البلد". هززتُ رأسي

موافقًا على كلامه، فكلانا يومها لم يعرف أن الظروف ستسوء حقًا وبأسرع مما يتصور أحد.

بعد أن استفهم الرجل عن الشخص الذي ابتغي مقابلته، سألني في تباهي العالم ببواطن الأمور: "جاي اعتراف يعني؟". كنت أود توضيح الأمر له، بأن الأمر ربما يتطلب بعض الاعترافات طبعًا، لكنه ليس كما ما يظن، إلا أنه قاطعني مباشرة، موجهًا إياي إلى المبنى الإداري، الواقع على الجهة الأخرى من الشارع. كنت قد دخلت المبنى الآخر مرة واحدة من قبل، وهو مهيأ للقيام بوظائف المبنى الأول، كان الفرق الوحيد أن المبنى الثاني الذي ظهر فجأة منذ سنوات قليلة، لم يكن يحمل على قمته الشارة التي تثير قطاع من أهالي المنطقة، وتتسبب في بعض المشاكل غالبًا، وتخلف بعض القتلى أحيانًا أقل. بدا المبنى الأسمنتي بأدواره العشرة، محصنًا أكثر، أسوار عالية، وأبواب وشبابيك ضيقة، تعلوها قضبان حديدية للحماية. لكن ما كان يخطر لي كلما مررت بجانبه، هو أن سر حصانته لا يكمن في كل هذا، بل في تصميم خطوطه المستقيمة وزوايا التقائها القائمة. فالأقواس والمنحنيات، لسبب ما، تثير حفيظة الكثيرين في المنطقة.

على المدخل، والذي لم يكن بجانبه جنديًا للحراسة، كالعادة، تجهزت لإبراز بطاقتي. لكن المرأة الخمسينية الواقفة بالداخل والتي كانت تشبه الست الوالدة تمامًا، بشعرها الأبيض القصير، ولباسها الأسود، لم تعرني أي اهتمام. تطلب الأمر بضع ثواني لتتنبه لسؤالي، ودون أن تنظر في اتجاهي، أشارت بذراعها إلى الدور الأول، "الباب الأخضر،

والمكتب مفتوح على طول". عبرت الساحة الطويلة في الدور الأرضي، والتي كانت ممتلئة بعشرات من الأطفال وأسرهم، وصعدت السلم بهدوء محاولاً تنظيم أنفاسي بقدر المستطاع. كان الباب الأخضر مفتوحًا بالفعل، والرجل الذي كنت أنتظر مقابلته سرعان ما قام عن كرسيه لاستقبالي، فاتحًا ذراعيه في ترحاب لم أكن أتوقعه.

تبخرت من رأسي كل تفاصيل الخطة المحكمة لإدارة اللقاء، وحتى القلق من تقلصات عضلات الوجه تبدد تمامًا. فالكرسي الوثير الذي دعاني مضيفي للجلوس عليه، كان مريحًا جدًا، بشكل لا تشي به هيئته الرخيصة والمتواضعة. ربما كانت الرشفة الأولى من زجاجة الكوكاكولا، التي صبها الرجل المسن بنفسه في كأس مملوء بالثلج قبل تقديمها لي، سببًا آخر للاسترخاء. كنت أعرف معنى ابتسامته، وما جاء بعدها: " يا بشمهندس، ده لقاء ودي، وأنت زي ابني، واحنا بس عايزين نتعرف على بعض". كنت قد رأيت تلك الابتسامة على وجه مشرف شؤون الطلبة، الذي أخبرني بأنه متعاطف معي وكل ما يريد أن يسمعه مني هو الحقيقة، لتدعيم موقفي في التحقيق، وبعدها تم فصلي من المدرسة الثانوية لمدة أسبوعين. كانت نفس الابتسامة الودودة على وجه ضابط المباحث، الرائد نبيل، في كل مرة أحضرني فيها إلى مكتبه، والتي بسببها أنا هنا اليوم. وستكون هي نفسها، مرتسمة على وجه الأستاذ عبد الحكيم، مدير الشؤون القانونية، قبل أن تهدم ابتسامته كل شيء.

كان اكتشاف الغدر المخبوء وراء تلك الابتسامة أمرًا سهلاً ومعتادًا، لكني في كل مرة كنت أستسلم لها بكامل إرادتي. ربما ما

يزعجني ليست السلطة، ولا الظلم، بل العجرفة المختبئة وراءهما، لكن في كل مرة تواضع ممثليها ـولو زيفًاـ واكتفوا بما يملكوه من سلطة دون الإصرار على التباهي بها، عبر إهانتنا، فلم أجد غضاضة قط من الامتثال لها. ينطلق لساني بكل الحقيقة، وتفاصيلها التي من الممكن أن تدينني. ربما كانت الحقيقة أيضًا وسيلة أخرى للتمرد ضدهم، فليس هناك ما أخشى منه أو أبتغي إخفاءه، أو ربما كانت مكافأة صغيرة مني للطفاء من رجال السلطة، بتسهيل مهمتهم، ورفع الحرج الذي يتظاهرون به عن كواهلهم.

كنت جاهزًا تمامًا لقول كل شيء، ما يقال وما كان لا ينبغي له أن يقال، في الحقيقة لم أكن قادرًا على الصبر أكثر من هذا. لكن أبونا "أنطونيوس" فاجأني بطلب لم أكن مستعدًا له:

"يعني كلمني عن نفسك شوية، أنت مين؟ وبتعمل إيه؟ وكده".

طوال سنين الدراسة الطويلة، وفي البيوت أيضًا، والكنائس، وفي كل الكتب التي تصفحناها، لم يدربنا أحد على إجابة هذا السؤال. فقط كل بضعة أعوام كان يواجهني في مقابلات التقدم للوظائف، وفي كل مرة كانت المفاجأة والحيرة نفسها تشلني عن أن أجد شيئًا مناسبًا لقوله. مزحة واحدة كنت تعلمتها للخروج من المأزق: "معلش أنا مبحبش أتكلم عن نفسي كتيرا"، كان للضحكات المعتادة والمفتعلة أن تسمح لي ببضع ثوانٍ لترتيب أفكاري، وكالعادة كنت أنطلق في الكلام، كلام كثير عن كل شيء. بالطبع لم يعطني أحد الوظيفة بعد إجابتي، ولذلك ما زلت في

وظيفتي الحكومية بعقدٍ مؤقت بعد عشرة أعوام من التخرج. لكن الأسوأ من فقدان فرص الوظائف كان الاضطراب الذي يصيبني بعد كل مقابلة من هذا النوع، وكأنني أرى نفسي لأول مرة. لا أريد أن أستدعي الشفقة هنا، لكن هذا الأمر قد حدث لي مرة واحدة على الأقل، فبعد مقابلة تتعلق بوظيفة في شركة إنشاءات أجنبية، بكيتُ ليلة كاملة بلا نوم، لا بسبب الإهانة التي تعرضت لها من مسؤولة الموارد البشرية في الشركة بلا سبب، ولا لأنهم رفضوا تعييني بالطبع، لكن لأنني اكتشفت كم المشقة التي تتطلبها إجابة هذا السؤال، أي لتقول شيئًا عن نفسك، أي شيء.

لاحظ الأب أنطونيوس ترددي، "طيب خليني أنا أبتدي الأول، وأقولك أنا أعرف عنك إيه وأنت تكمل". بدأ الرجل المسن في سرد بعض ما يعرفه عني بعينين نصف مغمضتين، وكأنه يتلقى وحيًا. يعرف أنني مهندس مدني، أعمل في جهة حكومية ما، كان قد فشل في تحديدها، ربما بسبب ضعف ذاكرته. هذا كان مرضيًا لي، فقد وجدت فرصة لتكملة معلوماته، وأخبرته باسم الهيئة التابعة لوزارة الثقافة التي أعمل بها. أنا أيضًا وبحسب ما سمع، لي أخت واحدة تدرس في الجامعة، لكنه لا يعرف تخصص دراستها على وجه التحديد. كنتُ قد بدأتُ في إدراك ما يجري، ربما كانت البيانات المشطورة تلك بغرض تشجيعي على الكلام لتتميمها، فتنحل عقدة لساني، أو ربما للتظاهر ببعض الجهل الذي قد يغريني بالكذب، فأنكشف أمامه. لم تزعجني الفرضيتين على الإطلاق، فقد كان هناك شيئًا مغريًا في اللعبة.

الوالد لا يحضر إلى الكنيسة أبدًا، أما الست الوالدة فهي تحضر بانتظام لقداس الجمعة، وتشترك في بعض الأنشطة التطوعية في الكنيسة. سمع أيضًا أن سمعتي حسنة، وأني لا أتورط في المشاكل، ومأخذه الوحيد عليّ هو التدخين، فجسد الإنسان هو هيكل الروح، وينبغي علينا رعايته وحفظه كهبةٍ من الرب. كان تلك الحقيقة أكثر ما أزعجني، فكل تلك الأعراض التي عانيتها في الساعات الأخيرة، بغية إخفاء "العبودية للسيجارة"، كما سماها، كانت بلا داعي. فالرجل يعرف بالفعل، ويعرف أيضًا أنني أعود إلى البيت متأخرًا عادة. كان موعد العودة هو زلته التي كشفت لي عن مصدر المعلومات. فجميل الشماس، والذي يعمل أبوه بوابًا لعمارتنا، دون مسؤوليات واضحة، سوى تقريعنا أنا ووالدي على رجوعنا إلى البيت في ساعات متأخرة، حتمًا هو المصدر. كان ذلك الاكتشاف كفيلاً بجعلي أبتسم لنفسي ببعض الرضا. أضاف أبونا أنطونيوس بعض المعلومات غير المهمة، والتي كانت كلها في صالحي، ومن ثم قفز إلى سؤاله الذي كنت أنتظره طوال الوقت: "طيب أنت شاب زي الورد أهو ومجتهد، ما بنشوفكش في الكنيسة ليه؟"

تبدلت جلستي على وقع السؤال، فبشكل لا إرادي اندفع جذعي إلى الأمام في اتجاه طاولة المكتب التي تفصلني عن كرسي أبونا. وهذا لم يكن شيئًا جيدًا جدًا، ففي عيني الرجل المسن، اللتان توهجتا حدقتاهما فجأة، كان يمكنني الحذر ببعض من توجسه، فوضعيتي الجديدة بذراعايَ المتكئتان على الطاولة أمامي، أكسبتني هيئة وحش يتأهب للانقضاض على فريسته، وفي أفضل الأحوال ظهر الأمر وكأنني على

وشك إفراغ معدتي على أرضية مكتبه. لم يخلو كلا الاحتمالين من وجاهة طبعًا، فبالفعل كنت متحفزًا لتقيؤ كل ما في داخلي عليه، أما افتراسه فكان مجرد مسألة وقت. أعرف جيدًا، وبفعل الخبرة، أنه لا خيبة للأمل أشد قسوة على هؤلاء ممن اعتادوا على تلعثم المعترفين أمامهم، سوى بأن يقعوا تحت يد ضحية محلولة اللسان. ليس الضجر من التفاصيل الكثيرة التي خضت فيها، ولا أنني حرمت الرجل المسكين من قيلولة الساعة الرابعة، بعد أن أخرته ساعة كاملة عنها، المؤلم هو ضياع لذة انتزاع الكلام أو محايلته بحكمة، أن تتحول السلطة إلى روتين، طقس من الاستماع الطويل، بلا إجبار ومراوغة.

"طيب خليني أبتدي من الأول خالص. ومعلش يا أبونا استحملني شوية". جعفر هو جد أمي، ومنه تبدأ هذه الحكاية، وحكايات أخرى ربما لا نحتاج أن نخوض فيها. ليس جعفر اسمًا مناسبًا لقبطي بالطبع، لكنه وكما جرت العادة في عائلة أمي، لم يكن الاسم الوحيد، فجعفر له اسمًا آخر هو حنا. للوهلة الأولى، تبدو الأسماء المزدوجة لأبناء العائلة بغرض التخفي، فاسم قبطي واضح، كاسم أمي، مرية، كان يلزمه اسمًا آخر محايدًا هو مايسة. كنت قد عرفت بالصدفة قبل عامين فقط، أنها كانت تُنادى به في طفولتها. أصغر أخوالي، يعرفه الناس في البلد باسم هاني، بينما يعرفه زبائنه في "الصاغة" باسم چورچي. الأمر معقد أكثر مما يبدو، ولا يتعلق بالتقية غالبًا، فحاشا أن يكون الغرض هو إنكار المسيح أمام العالم، فابن عم لأمي، مثلاً له اسمين، لا يضمن أيًا منهما أي تخفي مفترض، مايكل وتادرس. أما الخال الأوسط ففي

البطاقة اسمه أديب، فيما يناديه الجميع، بلا سبب واضح، بمسعود. في حالتين فقط أعرفهما، يتعلق الأمر بالمهنة، فجورجي يبدو اسمًا مناسبًا لضمان ثقة عدد كافٍ من الزبائن مسلمين وأقباط عندما يتعلق الأمر بتجارة الذهب. وفي الحالة الثانية، فإن قريبنا الذي يمتلك ورشة صغيرة للدوكو، يفضل استخدام اسم وليد في عمله، وهو حسب ما يظن اسمًا جيدًا لورشته، وأفضل كثيرًا من هنري، اسمه في شهادة الميلاد وفي البيت. لكن وبالرغم من أنني قد عجزت عن إيجاد منطقًا واحدًا لتفسير جميع حالات الازدواج في أسماء العائلة، ومعه تعدد أسماء شارعنا "الفريد" فإن اسم جعفر على الأقل كان له تفسير واضح، ومجمعًا عليه.

قاطعني أبونا مصححًا اسم الشارع، فهو ألفريد وليس الفريد، هكذا كان اسمه دائمًا، كما قال، وقبل أن يدخل مترو الأنفاق، ومعه يأتي كل هؤلاء الغرباء، الذين لم يكتفوا بمزاحمتنا، بل يريدون تغيير أسماء الشوارع، لأنها ليست على هواهم. هززت رأسي، متظاهرًا بالموافقة على كلامه، ووجدت الفرصة سانحة لارتشاف الجرعة الأخيرة من الكوكاكولا، قبل أن أعود لحكاياتي.

فالأمر أن العائلة تعود أصولها إلى الصعيد الجواني، ومن قنا تحديدًا، ولأن في زمن ليس ببعيد كان شيوخ القبائل العرب يُنعِمون بحمايتهم على بيوت الأقباط في القُرى والنجوع، فكان من نصيب عائلتنا أن تكون في حماية الجعافرة الأشراف وخدمتهم. كان الأمر لا يتطلب الكثير من الخدمة، فكل ما كان على رجال عائلتنا أن يقوموا به هو أن يسيروا مترجلين في مواكب الموالد والأعياد، خلف الخيول

الأشراف. ولم يكن الأمر مهينًا كما يبدو للوهلة الأولى، فالغرض من سيرهم في ركاب الشيخ هو أن يُباهي بأهل الذمة الواقعين في زمام عطفه وحمايته، ويُفاخر القبائل الأخرى بعددهم وحسن أحوالهم. بل أن جدتي، وقبل أن يصيبها المرض الذي التهم ذاكرتها، كانت تقول أن رجال عائلتنا، ولأنهم مقربين من الأشراف، كانوا يركبون على سرج مُزيّن في العيد الكبير، جنبًا إلي جنب مع أكابر القرية، وهذه كانت "عجبة" لم يسمع بمثلها أحد حينها من قنا إلى أسوان.

وبفضل تلك الحظوة التي نالها رجال العائلة، والذين كان يعمل معظم البالغين منهم في صياغة الذهب، فإنه لم يكن لديهم ما يخشونه وهم يتنقلون من قرية إلى أخرى لبيع مصوغاتهم، طالما تمتعوا بحماية الجعافرة، مقابل هبة موسمية، يأتي معادها مرتان في العام. تذهب الحكاية التي سمعتها مرارًا، إلى أن جعفرنا قد نال اسمه تيمنًا بالقبيلة، وأن ذلك الاسم كان لعنة أصابت صاحبه، وإن كان والده قد أدرك الجرم الذي ارتكبه لاحقًا، ومنح الولد اسمًا آخر عند عِمادته، هو حنا. لم يرضي اسم جعفر لا الله ولا الناس، فالمولود كان لسبب ما، أسود البشرة، "أسود عبد، مش أسمر"، كما كانت تكرر جدتي، كلما أعادت القصة على مسامعي. استاء الجعافرة قليلاً من الأمر، فليس من المُشرّف أن يحمل اسمهم عبدًا، وربما ابن حرام أيضًا، فمن أين أتت تلك الخلقة السوداء، في عائلة كان معظم رجالها ونسائها بيضًا وشقرًا، كالخواجات كما كان يطلق على عائلتنا وغيرهم من الأقباط حينها. سرعان ما نسى الجعافرة الأمر، إلا أن الله لا ينسى بالطبع.

تململ أبونا في جلسته، قبل أن يقاطعني بلطف: "يا ابني الساعة أربعة دلوقتي، حكاية جدك دي إيه علاقتها بمرواحك الكنيسة من عدمه؟" طمأنته بأنني سأختصر بقدر الممكن، وبأن لتلك الحكاية أن تفسر الكثير من الأشياء، قبل أن أسترسل مرة أخرى. كان جعفر، فتى عنيدًا، ومثيرًا للمشاكل، ومعتادًا على العراك في القرية لأتفه الأسباب. تبدأ المشاجرات عادة حين يتعمد الفتيان الآخرين إغاظته، ومناداته بـ"يا عبد"، وفي حادثة تلقى بسببها ضربًا مبرحًا من والده، كان قد بطح رجلاً مُسنًا، بعد أن سأله متهكمًا: "عامل إيه يا خواجة جعفر؟"

كان لجعفر أن يرضى بأن يكون إما عبدًا أو خواجة، لكن أن يكون الاثنين معًا، فهذا أمر لا طاقة لأحد به. ربما لهذا السبب فإن معظم أهل أمي قد ذهبت عقولهم في شيخوختهم، فمن يطيق أن يحمل الاسمين على كاهله في نفس الوقت، جعفر وحنا معًا! في عركة أخيرة، فقد جعفر ما تبقى له من صواب، واستل منجله، مُسددًا نصله إلى عنق غريمه الذي كان قد سبه بـ"يا ابن الحرام". تقول جدتي، أن الرأس قد انفصل تمامًا عن الجسد، وهذه رواية لطالما تشككت في صحتها، لكن وبغض النظر عن تلك التفصيلة الهامشية، فالنتيجة كانت واحدة.

"يعني انت عايز تفهمني إنكم قتالين قُتلى، ما بنخافش على فكرة، ربنا معانا". كانت قفشة أبونا، وقهقهتنا المشتركة كافية لطمئنتي بأنه كان بالفعل منصتًا، وأنه لم ينعس بالرغم من عينيه المغلقتين في نصف الساعة الأخير، والأهم والمدهش أنه فهم مغزى النصف الثاني من القصة، قبل أن أبدأ فيه.

عاد جعفر بعد خمس عشرة سنة كاملة، قضى بعضها في سخرة مناجم الجير الحي، والذي "لحس بصره"، على قول جدتي، والبعض الآخر في السجن العمومي. وبعد عودته القصيرة، وزواجه من ابنة عمة له في هدوء، أرسلته العائلة مع عروسه إلى الدلتا، تحاشيًا للمشاكل. وشيّعته ببعض المال من ميراث والده، والذي كان كافيًا لشراء قطعة من الأرض يعيش على إيجارها. رُزِق جعفر، بأربعة صبيان كان أصغرهم جدي لأمي وديع، ونال لبعض الوقت لقب "المُعلم"، بسبب عماه، وإن لم يكن مُعلمًا حقيقيًا ممن ينشدون ألحان الكنيسة في القداديس، ويعلمونها لمن بعدهم. فعلاقة المعلم جعفر بكنيسة بلدته الجديدة في الشرقية لم تكن على ما يرام، لأسباب يمكن تخيلها. فالرجل الذي زادت من غِلظته سنين السجن، والعمى، وغربته عن أهله، كان كثير الشجار مع رعية الكنيسة، وبالأخص مع كاهنها، الذي كان معروفًا بعجرفته هو الآخر.

وفي الليلة التي تغير كل شيء بعدها، حمل جعفر وليدته الجديدة، فراولة، مهرولاً إلى بيت الكاهن. الساعة كانت الثانية صباحًا، لكن معمودية البنت لم تكن تحتمل تأجيلاً، ففراولة نزلت نصف حية فقط، لا يتحرك أي من أعضائها وليس لها من علامات الحياة سوى أنفاسها الخافتة وغير المنتظمة. يمكن أن تتصور بسهولة كيف تحول الأمر إلى مشادة بين جعفر الذي كان ينتفض من فرط الغضب والقلق، وبين الكاهن الجِلف الذي أصابته الخبطات الشرسة على بابه بالفزع. يقال أن جعفر بدأ بتدوير عصاه في بيت الكاهن محطمًا أساسه، بعد أن أصر

الأخير على تأجيل الأمر بضع ساعات حتى يكون جاهزًا: "الصباح رباح يا معلم".

ماتت فراولة قبل أن تشهد هذا الصباح الموعود، ستنام البنت إلى الأبد، فغير البالغين ممن لم ينالوا سر المعمودية، لا يدخلون إلى ملكوت السماوات، ولا يحاسبون، ولا يرون وجه الرب، يظلّون معلقين في مكان بين السماء والجحيم، هائمين إلى الأبد.

في الأيام الأربعة التالية، والتي حبس فيها جعفر نفسه في الغرفة، ما كان يفطر قلبه حقًا لم يكن الموت، ولا ضربات القدر الإلهي، التي اعتادها، بل العجز أمام البشر. فإذا كان الرب قد اختار أن يحرمه من ابنة شيبته، لحكمةٍ يعلمها أو كعقابٍ مستحق على ذنوبه، فكيف لهذا الجِلف، الذي يحمل مفاتيح السماء على الأرض، أن يحرمه من أن يراها بعد الموت، فقط من باب العناد، والنكاية فيه، لأنه أقلق نومه.

تنحنح أبونا أنطونيوس، وبدا على وجهه قليلٌ من عدم الارتياح: "يعني أنت ما بتجيش الكنيسة عشان الحكاية دي؟ أنت زعلان مننا ولا من ربنا؟" لم أعر مقاطعته هذه المرة، أي اهتمام، واسترسلت في بقية القصة. كان الرجل الضرير قد بدأ بالهذيان بأمور هي خليط من الكفر والجنون، فمرة يعلن عن عزمه إحراق الكنيسة، ومرة أخرى يجدوه في المقابر ينبش في تربة البنت، حتى يستخرج جثمانها ويقوم بتعميدها بنفسه، ومرات كثيرة ادعى أن فراولة قديسة وتظهر له في المنام، وأشياء أخرى من هذا القبيل. لكن الرجل العنيد، لم يحتج سوى أسابيع قبل أن

يستعيد رباطة جأشه، بل والأدهى أنه في أربعين البنت، ذهب إلى الكنيسة لحضور القداس، وتناول الخبز والكأس من يد الكاهن الجلف، وقبلها بعدها بكل إخلاص. كان الجميع يعرف أن الشيطان الذي يسكن رأسه، يخطط لشيء خطير.

تصر جدتي أن الأمر كان معجزة، ولذا تبدو روايتها للأحداث التالية، تحمل الكثير من المبالغات، لكن للأسف لا يوجد أمامنا مصدر آخر، فلا بديل عن القبول بقصتها مع القليل من الحذر. ففي الصباح التالي للأربعين، خرج الرجل الضرير من البيت وحده، دون أن يصطحب واحدًا من صبيان العائلة كعادته. وفي المساء لم يعد جعفر. لكن غيبته لم تطل فقد عاد إلى البلدة بعد ليلة واحدة قضاها في جهة غير معلومة، وبعدها بدأ في البحث عن مشترٍ لأرضه الزراعية، مصدر رزقه الوحيد. تقول الجدة بأن الأرض بيعت في نصف نهار، واشترى جعفر بثمنها قطعة أرض بجوار البيت في النصف الآخر من النهار. لم يفهم أحد حينها الغرض من قطعة الأرض الجديدة، ولا سبب العجلة التي دفعته إلى البيع بالخسارة، والشراء بالخسارة أيضًا. احتفظ جعفر بالسر لنفسه، على مدى أربعة أعوام، كان يخرج وحده من البيت، وتحت إبطه ظرفًا كبيرًا مثقلاً بالأوراق، لم يسمح لأحد من أهل بيته بالاقتراب منه. كان يغيب جعفر بالأسابيع عن البلدة، البعض ادعى أنه قد رآه في مركز المحافظة، ومرة في قنا، ومرات عدة في القاهرة والإسكندرية. يقولون إنه كان يبيت في الشوارع، وآخرون رأوه بصحبة أفندية كانوا يتصفحون أوراق الظرف باهتمام، وفي بضع مرات رأوه بصحبة

خواجات، ومع رجالٍ كانوا يرتدون جلاليب غريبة، ويربطون حبال على وسطهم.

"المهم يا أبونا، أقولك الموضوع خلص إزاي باختصار"، كنت قد اكتفيت من تلويع الرجل المسن، بعد أن أثبتُّ له ولنفسي، أن الدفة في يدي، وأن أوراق لعبة الاعتراف ليست بالضرورة حكرًا عليه. كان جعفر قد ذهب في نهار الأربعين بحثًا عن الانتقام، فقد سمع بأن للكاثوليك مطرانية في المنوفية، وكان قد ضل الطريق، وقضى ليلته الأولى على رصيف محطة القطار في شبين الكوم، قبل أن يدله أبناء الحلال على طريقها في الصباح التالي. كان لقاء جعفر بالمطران معجزة إلهية بالنسبة للثاني بالتأكيد. فالرجل الضرير جاء عارضًا أن تتحول أسرته كلها إلى الكاثوليكية، وأن يبني كنيسة للطائفة في بلدته، يتكفل هو ببنائها وتأسيسها، وثمن الأرض التي ستقام عليها. كل ما طلبه جعفر في المقابل، هو كاهن من الطائفة، يقبل بالانتقال إلى العيش في البلدة، ولا يزعجه أن تكون رعيته مكونة من ستة أفراد فقط، وكذلك يحبذ أن يكون صبورًا ليتحمل طباعه الخشنة. استلزم استصدار قرار كنسي، جاء من روما، بضعة أسابيع فقط، لكن الأمر استغرق أربعة أعوام، من الإجراءات والشكاوى والتظلمات في الدواوين الأميرية، حتى صدر تصريح بالبناء من الحكومة، وهذه معجزة أخرى بحسب جدتي.

بعد بناء الكنيسة، وافتتاحها، لم يتوقف جعفر عن إثارة المشاكل بالطبع، فقد طرد القس الكاثوليكي بعد شهرين فقط، بحجة أنه يتكلم

العربية بصعوبة. والراهب صغير السن الذي أرسلته المطرانية بعده، يقال إن جعفر قد أغلق باب الكنيسة في وجهه، ورفض أن يسمح له بإقامة القداس، لمدة شهر، لأنه ضبطه يشرب النبيذ ويدخن في حديقتها الخلفية. ظل الرجل يصارع ألم فجيعته في فراولة إلى النهاية، ولم يبرد الانتقام شيئًا من غليله. فحتى وهو على سرير الموت، كان يفيق من بين غفواته الطويلة، ليهذي بأمور تثير فزع من حوله، رافعًا قبضته في وجه السماء: "هذه كنيستي، وملكي أنا، بنيتها، حتى لا أدخل ملكوتك، ولا أرى وجهك". مات جعفر وهو يصرخ بتجديفاتٍ كثيرة من هذا القبيل، وبعدها دُفِن بجوار فراولة، بحسب وصيته.

لم أرَ على وجه أبونا أنطونيوس مثل تلك الدهشة منذ أن بدأ لقائنا، بل لم أظنه حتى قادرًا على الاندهاش بالأساس، كان الرجل قد بدا مترددًا في شأني، فهل عليه حقًا أن يأخذ تلك القصة على محمل الجد، كإجابة على سؤاله، أما أنني قضيت ساعتين في سردٍ بغيته الوحيدة هي السخرية منه وإهانته. ربما افترض الرجل أنني أعاني بعض الاختلال، بسبب الظرف الضاغط الذي دفعني لمقابلته. كان صوت أبونا مرهقًا، وهو يصافحني مودعًا: "شكرًا يا بشمهندس على وقتك، الرب يباركك، وأشوفك الأسبوع الجاي في نفس الميعاد".

٢

كانت أمورنا تجري على ما يرام، حتى تلك السفرة المشؤومة. ربما لو كنت استسلمت لمخاوفي كالعادة، لما كنت قد سافرت، ولما حدث لنا ما حدث، وبالطبع لما وجدت نفسي مضطرًا للوقوف بين يدي أبونا أنطونيوس مرة كل أسبوع. لم يصدق أحد أنني، حين وصلني جواز السفر في البريد، وتصفحته لأجد "ڤيزا الشنجن" مطبوعة على واحدة من صفحاته، أصابني الغم لليلةٍ كاملة. كنت قد قدمت على الڤيزا، بسبب إلحاح إستر، لا أكثر، وكانت تعزيتي الوحيدة أنني كنت متأكدًا بأن طلبي سيُرفض. الأمر لم يخلو من أسبابٍ موضوعية، فرد فعل موظف السفارة حين نظر في مستنداتي كان كافيًا لتأكيد توقعاتي. استمارة مفردات مرتب بـ٤٢٠ جنيه في الشهر، ودفتر توفير من مكتب بريد عين شمس، مكتوب فيه بخط اليد ٢٠٠٠ جنيه، كانت لا تستدعي، بكل تأكيد، أكثر من تلك الابتسامة الساخرة التي ارتسمت على وجه الموظف. كنت أريد حينها أن أخبره أنني لست ساذجًا، وأنني متيقن تمامًا من ختم الرفض على الباسبور، وإن الأمر كله أنني أردت ترضية إستر، التي لطالما اتهمتني بالجبن، والاكتفاء بالهرب من كل شيء، دون نيل

شرف المحاولة على الأقل. لم تخفِ هي شماتتها بالطبع حين رأت الفيزا، "مش قلت لك، بلاش تشاؤم". لم أجادلها حينها، فهي ربما ما كانت لتفهم أن الأمر لا علاقة له لا بالتشاؤم ولا بتمني الحظ.

السفر في عائلتنا، وبين من مثلنا من الناس، "اللي على قد حالهم"، لا يُقدم عليه إلا على سبيل الاضطرار، ومع هذا لا ننله إلا نادرًا. فباستثناء عمًا لي، هاجر إلى أمريكا في السبعينيات، ولم يعد غير مرة واحدة إلى مصر، فإن جميع حكايات الانتقال في عائلتنا كانت إما تفاديًا للمشاكل أو هربًا من تبعاتها بعد وقوعها. عاش أبي عمره كله، وهو يُمني نفسه بإعارة ولو لعام واحد للسعودية، أو أي دولة خليجية أخرى. أمي كانت تتكلم مثل إستر: "ما تقدم، ما هو الأستاذ نجيب قبطي وبعتوه، وبيجددوا له سنة ورا سنة". كانت حجة والدي كل عام للعدول عن التقديم هي اسمه، "هيبعتوا "موريس" السعودية برضو، "نجيب" اسمه بس مساعده، تلاقيهم ماخدوش بالهم". لم يكن بالطبع هناك ضررًا من التقديم، بأي حال، كما كانت تقول الست الوالدة. لكن السبب الحقيقي، الذي لم يصرح به موريس سوى مرة واحدة، أنه لم يكن يخشى من الرفض، بل من أن يقبلوه ولو على سبيل الخطأ. فهو لم يكن ليحتمل مهانة الصفعة التي تلقاها الأستاذ نجيب على يد مديره السعودي في شهوره الأولى هناك، :"ده أنا كان يجيلي جلطة واتشل فيها".

احتجت بعض من الوقت لاستيعاب حقيقة أنني سأسافر فعلاً، ولألمانيا مرة واحدة، وبغرض الفسحة أيضًا، لا سعيًا وراء لقمة العيش

الممزوجة بالمهانة أو دونها. لم تكن تلك بالمهمة السهلة، فأنا قليلاً ما خرجت من القاهرة، فقط بضع مرات في طفولتي. فراتب الوظيفة الحكومية الذي كانت تعيش عليه الأسرة بالكاد، لم يكن ليسمح سوى بمصيف واحد كل ثلاثة أعوام، وفقط في مؤتمرات الكنيسة المُدعّمة. وحتى هذا لم يخل من بعض المهانة، والكثير من العذاب، فغالبًا ما انتهينا في "بيت النعمة" في بلطيم، وكان علينا النوم في عنابر كان يحتوي كل منها على اثني عشر سريرًا بدورين، أربع وعشرين شخصًا وأطفالهم، في مكان واحد، سيىء التهوية غالبًا. كان النوم أمرًا شبه مستحيل، فلسبب ما كان جميع رواد الكنيسة مصابين بداء الشخير. لكن ما كان يغيظني حقًا، هم هؤلاء الأطفال الآخرين، الذين لم أفهم حينها لما كان من حقهم أن يناموا في شقق منفصلة مع أسرهم في الدور الثاني، ولم يكونوا مرغمين مثل نزلاء العنابر على حضور الاجتماعات الروحية الصباحية والمسائية، في كل يوم من أيام المصيف. وحتى الهرب من حصص المواعظ الروحية المرغمين على تجرعها يوميًا، لم تكن لها فائدة. فأمي التي رأت البحر لأول مرة وهي في الأربعين من عمرها، وبعدها أربع مرات فقط في حياتها كلها، كانت تخشاه كما تخشى الشيطان نفسه، ولم تسمح لي بأكثر من لمسه بطرف قدم واحدة.

لم يخطر ببالي أبدًا، أن رحلتي إلى برلين، ستنتهي بي إلى واحد من تلك العنابر، لكن هذا ما حدث. ففي صباح اليوم التالي لوصولنا، حدثت مشادة بين إستر ووالدها. كان الصدام متوقعًا من اللحظة

الأولى، فالرجل تعمد ألا ينظر في وجهي طوال الطريق من المطار إلى بيته، ولم يتبادل كلمة واحدة معي على مائدة العشاء بعدها.

"الباشا استيقظ أم ما زال مستلقيًا في انتظار الجواري؟"

استخدم الرجل فعلاً كلمة الباشا كما ننطقها بالعربية، وعلى وجهه قرف كافيًا لتفسير ما يعنيه بها. كانت إستر متحفزة للهجمة، ومستعدة لها:

"الباشا استيقظ منذ الساعة السادسة، وخرج للتمشية وحده لأن الجميع كانوا ما يزالون نيامًا".

لم أشهد الشجار بينهما، فقد رجعت بعد أن انتهى، وبعد أن كانت إستر قد حزمت حقائبها وحقائبي ووقفت بهما أمام البيت في انتظاري.

لم نتفق على الزواج، أو أي شيء من هذا القبيل، لكن هذا ما قالته إستر لوالدها، من باب العناد، حين سألها مستنكرًا عن الهدف من إحضاري إلى بيتهم. الزواج، هذا كان ما توقعه الرجل، عندما أخطرته ابنته، قبلها بشهرين، بأن صديق من مصر سيأتي معها إلى برلين. وهو كان مستعدًا للأمر أيضًا، بكتاب قد ناوله لإستر، مع بداية المشاجرة. رأيت الكتاب على المائدة في الصباح، قبل مغادرتي للتمشية، واستطعت ترجمة عنوانه، بالاستعانة بألمانيتي المتواضعة وقاموس الجيب: "رهينة في بلاد الفراعنة". صورة الغلاف فسرت مضمونه إلى حد ما،

امرأة لها ملامح أوروبية وترتدي الحجاب، يبدو عليها علامات الخوف، وهي تحتضن طفلاً بشعر أشقر مجعد وبشرة سمراء.

ألقت إستر بالكتاب على المائدة، بعنف، وذكرت والدها بأنها نعيش في القاهرة منذ خمس سنوات، وتعلمت لغتها، وتتحدثها بطلاقة، وتعرف ناسها جيدًا، ولا تحتاج لكتابه الأصفر. استمر الحوار لحوالي نصف ساعة على الأقل، وبنبرة أقل حدة من الطرفين. كان الوالد، القلق على ابنته، لأسباب مفهومة، يحاول أن يشرح لها كيف يعامل الرجال المسلمون نساءهم، مستعينًا بالنهايات المأساوية لحالات الزواج المختلط، التي قرأ عنها على صفحات الحوادث بالجرائد الألمانية. ولأن إستر تحاشت أن تدخل في حوارٍ مُتعمق عن التعميم والعنصرية وغيره، تعلم أنه لن يكون بالضرورة مثمرًا، فقد اكتفت بتذكيره بأنني لست مسلمًا. لكن تلك الحقيقة التي يعرفها من قبل، لم تغير شيئًا من موقفه: "نعم ليس مسلمًا، لكن الثقافة التي تربي عليها مسلمة". أخبرتني إستر أنها بدأت بالصياح، وبالكثير من النحيب بعد هذه الجملة، ومن ثم غادرت.

"الإسلام وراك وراك، هتهرب فين يا مسكين؟"

داعبتني إستر، فيما كانت تسحبني بيد وتجر حقيبتها الثقيلة باليد الأخرى، ونحن في الطريق إلى محطة القطار. قررت أنني لن أقبل دعوة صديقتها التي عرضت استضافتنا، فأنا قد لحقني ما يكفي من إهانة، ولا أريد أن أُعرِّض نفسي للمزيد منها. هي ستقيم عند صديقتها، وأنا

سأبيت في فندق رخيص، لتقليل نفقاتنا، فإستر كانت رفضت النقود التي عرضها عليها والدها قبل أن تغادر البيت، وكان معي ما يساوي راتبي الشهري، باليورو، وهو قليل جدًا. ولم يكن أمامي غير نزل للشباب، اقترحته الصديقة نفسها. وهناك، لم تختلف العنابر كثيرًا عن "بيت النعمة"، خمسة أسرة بدورين، في غرفة سيئة التهوية، مع تسعة مراهقين بولنديين، كانوا لسبب ما، يقضون النهارات نائمين، ويستيقظوا بالليل للعب الورق. كانت الإقامة أشبه بكابوس طويل، ومقدمة لكل ما سيجري لنا بعد هذا، فما أدركته حينها، وكان مؤلمًا، أن هناك أشياء لها أن تتبعك أينما ذهبت، ولا مهرب منها، مهما حاولنا، بلطيم والإسلام ومؤتمرات الكنيسة، وغيرها. لكن لم يكن الأمر بهذا السوء، فبالرغم من أن إستر كانت في مزاج سيء، معظم الوقت، بسبب شجارها مع والدها، وبالرغم من أنه كان علينا التهام الكثير من البسكويت والشيبسي لملء بطوننا في الأيام الأخيرة، توفيرًا للنفقات، إلا أننا اقتنصنا قدرًا لا بأس بها من البهجة، وبقدر المستطاع، في الوقت الذي قضيناه هناك.

كان كلانا سعيدًا بالعودة إلى مصر، حتى أن إستر، التي كانت تسخر دائمًا من المبالغات التي يستخدمها المصريين في حديثهم وتنتهي إلى لا شيء غالبًا، قد أخبرتني، بمجرد وصولنا لمطار القاهرة، وبمنتهى الجدية، بأنها لن تغادر القاهرة مرة أخرى في حياتها، أبدًا. لن تستطيع إستر الوفاء بذلك الوعد الذي قطعته لنفسها، للأسف، فلم يكن أيًا منا يعرف ما سيحدث بعد تلك الليلة. افترقنا بمجرد خروجنا من

المطار، استقلت إستر تاكسيًا إلى شقتها في وسط المدينة، وتوجهت أنا إلي بيت الأسرة في شرق القاهرة، حيث كان هناك ما ينتظرني.

كانت الـساعة الرابعة صباحًا، حين وصلت إلى البيت، وظننت أن والدتي بقيت متيقظة حتى تلك الساعة المتأخرة، لأنها افتقدتني وكانت نرغب في رؤيتي بمجرد وصولي. لكن لم يكن هذا السبب، أخبرتني الست مربة، بأن علاء قد اتصل بها أكثر من مرة، في اليومين الماضيين، وأنه اتصل قبل منتصف الليل بقليل، ليؤكد عليها لمرة أخيرة، أن تطلب مني مهاتفته بمجرد وصولي، وأنه لن ينام قبل أن يتلقى مكالمتي.

لم يكن الأمر مقلقًا، فعلاء وبالرغم من أنه أكثرنا رزانة، إلا أنه أحيانًا ما كان يأتي بتصرفاتٍ، كنت أنا وبقية مجموعتنا الصغيرة من الأصدقاء، نجدها في غاية الغرابة. رن الهاتف نصف رنة، قبل أن أسمع صوت علاء من الناحية الأخرى، هامسًا.

"وصلت الحمد لله. نتكلم بكره ضروري"

ثم أغلق الخط في وجهي، دون أن يمنحني فرصة لنطق كلمة واحدة. "يا ابن المجنونة!"، كررتها عدة مرات، قبل أن أستلقي على السرير. كان القلق قد بدأ يتسرب إليّ، لكنني كنت مرهقًا جدًا، بفضل الليالي التي قضيتها بلا نوم في نزل الشباب، نمت كما لم أنم من قبل، وكأن جسدي ينتقم من كل ليالي الأرق وعنابرها، أو يستعد للمزيد منها في المستقبل.

في المساء التالي، ذهبت إلى المقهى الذي حدده لي علاء، والذي اختاره بعيدًا عن وسط المدينة، حيث نلتقي عادة. كان المقهى بعيدًا أيضًا عن محل إقامتنا، بشكل متعمد، حسب ما أخبرني. وصلت في موعدي كالعادة، وعلاء كان منتظرًا في ركن مظلم من المقهى الصغير. وبعد السلامات، وملخص لعركة إستر مع والدها، فهمت أنه لم يكن مهتمًا بسماعها، أخرج علاء من حقيبة كان يخفيها تحت كرسيه البلاستيكي، صحيفة، وناولني إياها.

"الموضوع اللي أنا جيبتك عشانه ليه علاقة بإستر برضه، بص على الصفحة التالتة".

توقع علاء نظرة الهلع التي أصابتني بمجرد أن قرأت العناوين، قضينا بضع دقائق من الصمت، قبل أن يكسره علاء بجملة، ربما كان قد قضى ساعات في إعدادها استعدادًا لتلك اللحظة.

"أنا كنت خايف يقبضوا عليك في المطار".

قام علاء بهدوء من على كرسيه، وتوجه لمحاسبة النادل، بعد أن أخبرني أنه من الأفضل، أن نتحرك من المقهى بشكل منفصل.

"خلّص قهوتك، وفكر الليلة دي، ونشوف هنتصرف إزاي بكره الصبح".

لم أستطع إكمال القهوة، ولكنني بقيت في المكان عشر دقائق إضافية، كانت كافية لتحاشي لقاء علاء مرة أخرى في محطة مترو

الأنفاق القريبة، والتي كان على كلانا التوجه إليها في طريق العودة إلى بيوتنا. بالكاد، استطعت أن أحافظ على توازني، فجسدي لم يتوقف عن الارتجاف منذ اللحظة التي وقعت عيني فيها على الصفحة الثالثة من الجريدة. رمقني النادل بنظرة استخفاف، فربما ظن أن خطواتي غير المنتظمة كان سببها السُكر أو شيء من هذا القبيل. وفي الأمتار القليلة التي قطعتها إلى محطة المترو، كنت مترددًا إن كان عليّ مهاتفة إستر في الحال وإخبارها بالأمر أم لا، لكنني حسمت أمري بالانتظار حتى الصباح. فقد تذكرت نصيحة علاء بتفادي المكالمات الهاتفية من الآن، إلا عند الضرورة القصوى. وبالطبع لم أنم ليلتها.

٣

اكتفت الست الوالدة هذه المرة بإلقاء البنطال والقميص المكوي إلى جانبي، دون توجيه أي نصائح، ففي الثلاثة الأيام الماضية ومنذ لقائها بأبونا أنطونيوس في مكتبه بناء على طلبه، امتنعت عن الكلام معي، ربما بفعل الغضب مني أو اليأس من جدوى النصح، أو لتلقيني درسًا في الكتمان، الذي لا تجيده بأي حال. كان تلكؤي لبعض دقائق مبررًا لها لتدخل الغرفة مرة أخرى، متخلية عن صمتها، "يلا الساعة ثلاثة إلا عشرة، ميعادك مع أبونا". كانت علامة الإذعان، التي وشت بها هزة رأسي، وتظاهري بالعجلة، كافية لترضيتها، "ربنا معاك، يا حبيبي". لم يكن إذعاني كله مفتعلاً، فالطريق إلى مبنى الكنيسة كان ممهدًا به، وفي نهايته أبرزت بطاقتي بلا تردد، ودون الحاجة لتوجيهات وجدتُ طريقي بسهولة إلى الغرفة ذات الباب الأخضر المفتوح دائمًا. فأنا لم أكن متحفزًا لصدام بيني وبين أبونا كما في المرة الأولى، أو على الأقل كنت بدأت في القبول بموقعي في اللعبة.

فرد أبونا ذراعيه عند رؤيتي مرحبًا، لكنه لم يغادر كرسيه هذه المرة، "في ميعادك يا بشمهندس". تلقيت الثناء على دقتي في المواعيد،

بقليل من الضيق. فأبونا يبدو مع ابتسامته المتنمرة هذه المرة، وكأنه يريد التأكيد على قواعد اللعبة التي أفسدتها في لقائنا الأول، فأنا هنا طوعًا بالتأكيد، لكن وجودي يلزمه تقيد بشروط ولو شكلية، والثناء على التزامي بها ليس إلا تلويحًا بعواقب خرقها. وبعد السلامات والتحيات المعتادة، بادرني أبونا بما كنت متوقعه إلى حدًا ما، فالرجل في سبيل تأكيده على قواعد لقائنا، كان عليه أن يخرقها هو بنفسه، وأن يظهر قادرًا على تبديل مواقعنا متى يشاء.

"أنا عارف أنك مجهز كلام كتير تقوله، بس خليني أنا أحكيلك حكاية، أنت بتؤمن بالمعجزات، مش كده؟"

بدأ أبونا لعبة تبادل الأدوار بشرح معنى المعجزة، فالخوارق من الأحداث ليست تعديًا على الناموس الطبيعي للأشياء، فحاشا لله أن يتعدى على قوانين العالم الذي قد وضعها منذ بدء الخليقة، فهي في كمالها، معجزة المعجزات الإلهية. لكن وبالطبع فإن الاستثناء دائمًا ما يثبت القاعدة. فقدرة الله غير المحدودة على تعطيل قوانين المحسوس، وتجاوزها، هي تأكيد على كمال الناموس. كان الأب أنطونيوس، مغتبطًا جدًا بفصاحته اللاهوتية، ولتلميحه إلى أن التعدي على القواعد من قبل الطرف الأقوى ليس إلا تأكيدًا على رسوخها، وقدرة واضعها المطلقة على تغييرها.

"المعجزة محسوسة في كل حاجة حوالينا، المبنى اللي احنا قاعدين فيه ده معجزة".

كانت القصة التي استرسل فيها الأب أنطونيوس، بحماس صادق، خالية من الخوارق التي توقعتها. فباستثناء رؤيا الأب أشعيا، الكاهن الأول للكنيسة منذ تأسيسها في السبعينيات، والتي رأى فيها الأرض تنشق عن كنيسة أكبر على الجانب الآخر من شارع "ألفريد"، فإن الأحداث لم تحوِ سوى الخوارق الإدارية المعتادة التي يتطلبها انشقاق الأرض عن كنيسة في مصر.

فالأب أشعيا، نجح في شراء قطعة الأرض المقابلة للكنيسة، بفضل تبرع مقاول قبطي كانت العذراء قد دعته في الحلم للانتقال إلى القاهرة لبناء كنيسة باسمها. كانت المعجزة التي مر عليها أبونا سريعًا دون إسهاب، هي النعمة الإلهية التي بفضلها أصبح عامل التراحيل المُعدم القادم من المنيا، مقاولاً ثريًا في القاهرة بعد عدة سنوات فقط. فبالطبع، قصص الثراء السريع، وإن كانت جديرة بالذكر، إلا أنها ليست من نوع المعجزات التي تشغل بال الكهنة. فالمعجزة الحقيقية كانت الحصول على تصريح بالبناء، فالسماح ببناء كنيسة أمام كنيسة وعلى بعد أمتار منها، أمرًا كما يقول أبونا، من رابع المستحيلات. تنيّح أبونا أشعيا، بعد أكثر من عشر سنوات من تقديم طلب التصريح بالبناء، تاركًا كنيسته الصغيرة، التي ضاقت بأعداد المتعبدين المتزايدة، ووعد رؤيا العذراء في يد أربعة من الكهنة من بعده، كان أحدهم أبونا أنطونيوس. احتاج الأمر خمسة أعوام أخرى من الصلوات والدموع، حتى جاء اليوم، الذي دخل فيه ضابط أمن الدولة، على أبونا في مكتبه، وفي يده الموافقة الأمنية النهائية، والتي جاءت بشروط تعجيزية. فالتصريح جاء

لمبنى إداري، بعشرة طوابق، لا يجب أن يحتوي تصميمه الخارجي، على أقواس أو قباب أو صلبان، أو نوافذ أو وأبواب ذات أقواس، ومدخل أمامي واحد فقط، على أن يتم البناء فورًا، وفي الليل فقط منعًا للمشاكل، وأن ينتهي العمل في شهرين فقط على أقصى تقدير، مع التكتم على طبيعة المبنى حتى موعد افتتاحه.

"أنت مهندس مدني، مش كده؟ فيه مبنى عشر أدوار بأساساته وتشطيبه يخلص في شهرين؟"

كنت قد هززت رأسي مؤكدًا على معجزة العذراء، متغاضيًا عن بعض المبالغة في تقدير مدة البناء، والتي أعرف أنها امتدت لأكثر من عشرة أشهر، كنت خلالها، دائم التساؤل عن طبيعة المبنى قيد الإنشاء، وسبب العمل فيه بعد منتصف الليل فقط. لكن الأمر معجزة فعلاً، فالذين وقعوا على التصريح ووضعوا اشتراطاته، تغاضوا عن حقيقة أن المبنى الإداري، يضم ثلاث كنائس بهياكلها، تربطها دائرة تلفزيونية بالكنيسة الأم على الجانب الآخر من الشارع، تسمح باستضافة أكثر من خمسة آلاف من المتعبدين في القداس الواحد، هذا غير الحضانة، والمطبخ، وعدد من منافذ البيع والكانتينات، ومسرح، وقاعتين للاجتماعات، غير متاهة من الغرف والمكاتب الموزعة على طوابق المبنى.

"على فكرة دي معجزة زي معجزة كنيسة جدك جعفر"

كالعادة استقبلت قفشة أبونا الذي تبعها بالكثير من القهقهة ببعض التحفظ، فأرضية مشتركة لقصصنا وتباسطًا حول حق ملكيتها

كان آخر ما أرغب فيه. فسلاحي الوحيد هنا أمامه، هو قصصي وقدرتي على حبكها، والتحكم في أحداثها.

"طيب أنا خلصت، هتحكيلنا عن إيه النهارده يا شريف؟"

كانت معجزة أبونا قد استهلكت نصف الزمن المخصص لجلستنا، لذا طلبت منه ألا يقاطعني حتى أنتهي، وهو ما وافق عليه دون تردد، مع الكثير من الاعتذار أيضًا.

"أنا اسمي الكامل، شريف موريس بولس أسعد عوض الله".

وعلى خلاف جعفر، فأنا أعرف القليل جدًا عن جدي الأكبر، أسعد، ففي مرات قليلة اضطر والدي، على وقع إلحاحي، أن يخبرني بأنه كان من قرية من الشرقية لا يعرف اسمها، وأنه كان فلاحًا فقيرًا جدًا. وغير ذلك فليس هناك ما كنت أعرفه عنه، سوى دعاء جدي بولس عليه، كلما جاء أحد على ذكره: "الراجل العرص، ربنا يلعنه في كل كتاب". والحقيقة أن الأمر ظل لغزًا مسليًا، لطالما شغل بعض من وقتي في الطفولة، في نسج عشرات من القصص عن "الرجل العرص" وما فعله ليستحق هذا اللقب. وإن كنت في عمر المراهقة قد انشغلت عنه، وارتضيت بنسيانه، مستسلمًا إلى قناعة بأن الفقر هو خصم الخلود، فالفقراء لا يتذكرهم أحد بعد مماتهم، وهو على ما يبدو كان رجلاً بائسًا، في حياته، وفي ذكراه بعد مماته أيضًا.

"خليني بس أوضح ليه موضوع أسعد ده مهم ليا يا أبونا"

فعائلة والدي، والتي نبذت اسم أسعد بالطبع، كان عليها أن تجد اسمًا تُنسب إليه. فنحن ليس لنا اسم عائلي مشهور للأسف، ولا ننتمي لمكان نعرف حتى اسمه لنُلحِق نسبنا العائلي به. فكان الاسم المفضل لنا هو "عيلة عوض الله". لكن ومع أننا لا نعرف عن عوض الله، هو الآخر، أي شيء على الإطلاق، إلا أننا لطالما وجدنا في اسمه نسبًا عائليًا مُرضيًا. ربما بسبب ما يوحي به الاسم من قصة صاحبه من فقد وتدخل إلهي لتعويض أصحابه.

وهكذا، بقيت منتسبًا إلى عوض الله، إلى اليوم الذي تقدمت فيه للحصول على ڤيزا الشنجن. فالسفارة الألمانية في القاهرة، والتي ربما لا تفهم قواعد إجراءاتها أسماءنا الطويلة والمتسلسلة من الأب إلى الجد، وجد الجد، وهكذا، قررت أن تختار لي اسمًا عائليًا من بين سلسلة الأجيال التي في اسمي. ووقع خيار أحد موظفيها، ربما بالصدفة أو من باب الضجر، على اسمي الرابع. أصبح اسمي في الوثيقة الألمانية الرسمية: "السيد أسعد". ومع أنني لم أكن سعيدًا بحمل لقب "الرجل العرص"، إلا أنني سريعًا ما عودت نفسي على اسمي الجديد. ففي النهاية نحن لا نختار أسماءنا، أبدًا، وبالطبع فالڤيزا سارية لستة أشهر فقط، يمكن احتمالها.

لكن ما لم أكن أعرفه حينها، هو أنني سأحتاج، لاحقًا، لتلك الوثائق الرسمية المصرية، من السفارة الألمانية، والتي بسببها أنا هنا اليوم أمامك. وبفضلها سيلتصق بي اسم "السيد أسعد" لأطول مما ظننت. فأنا وجدت نفسي مؤخرًا، مضطرًا لتغيير كنيتي في الوثائق الرسمية المصرية لتتطابق مع الاسم الذي اختاره الألمان لي، ولم يعودوا يرضون بغيره.

فالبيروقراطية هي البيروقراطية في كل مكان، في مصر كما في ألمانيا، لا تخطيء أبدًا. وإن أخطأت فإن خطأها، يلزم تغيير العالم ليتوافق معها، لا العكس. أعاد الخطأ البيروقراطي الصغير، والإصرار عليه، بعض الحق لأسعد في الذكرى، كما ربط مصيري بالرجل. ولا تسيء فهمي يا أبونا، فأنا لا أتبرم من الكنية التي فرضت عليّ، فكل ما في الأمر هو أنني مندهش من الطريقة التي يمكن لتلك الهفوات الإدارية الصغيرة أن تستحضر المنسيين، أو تمحيهم تمامًا من التاريخ، بمنتهى البساطة، والرتابة الوقورة في معظم الأحيان.

لم يظهر على الأب أنطونيوس أنه كان منبهرًا، بتفلسفي في شأن الطبيعة القدرية للبيروقراطية، "يا بشمهندس، أنت لسه فاكر سؤالي الأصلي، ولا نسيت؟"

فهمت إشارة أبونا بالطبع، وطمأنته على أنني سأصل بقصصي في النهاية لإجابة سؤاله عن غيابي عن الكنيسة، ووعدته بأنني سأنتقل لصلب الموضع مباشرة، وبمنتهى الاختصار.

المهم، أدين بكل ما عرفته لاحقًا عن أسعد، من زلة اللسان، التي ارتكبتها عمتي أمامي في جنازة جدي بولس، عن "تلطيمه في الملاجئ". لم يكن أمام والدي، حينها، سوى أن يكشف لي السر الذي احتفظ به طويلاً. فالرجل الذي كان يبغي حمايته، قد مات.

تذهب رواية والدي، إلى أن أسعد كان فلاحًا معدمًا، يعمل في أراضي الغير مع زوجته وبعض من أبنائه الثمانية. وهذا لم يكن كافيًا

لتوفير ما يسد رمق الأسرة، ولا حتى تدبير ولو كسوة واحدة لكل طفل في شهور الشتاء الباردة. لكن ولحسن الحظ، ففي هذا الزمان، كانت الإرساليات التبشيرية تجول القرى والنجوع في طول البلاد وعرضها. فبعد أن زار اثنان من مبشريها الأجانب قريته، تنازل أسعد عن اثنين من أصغر أبنائه للإرسالية الأمريكاني، بعد أن وعوده بتعليم الطفلين وإعالتهما، حتى سن البلوغ، على أن يستطيعوا قضاء الإجازات الصيفية معه. ذهب بولس، الذي كان في سن الخامسة إلى مدرسة داخلية تابعة للإرسالية المشيخية في الحي الإفرنجي في مدينة الإسماعيلية. أما أخاه، وبسبب صغر سنه فتم إرساله إلى ملجأ تابع للإرسالية الرسولية في أسيوط. هنا تنتهي قصة أسعد، فالمدرسة لم ترسل بولس قط إلى القرية بسبب أزمة مالية استدعت توفير النفقات، أما أسعد فلم يسعَ للبحث عن ابنيه، مطمئنًا للتضحية بهما، وربما مغتبطًا لنجاتهما من مصيره ومصير بقية أبنائه.

لم يكن أسعد مخطئًا تمامًا. فباستثناء ذكريات بولس عن قسوة المرسلة السويدية المسؤولة عن المدرسة، وتذمره من ساعات الصلوات الليلية الطويلة، وقراءة الكتاب المقدس التي كان يرغم عليها، مع غيره من الأطفال، فإنه كان يحصل على وجبتين كافيتين لسد جوعه كل يوم، وكسوة صيفية وأخرى شتوية، كل عام، تأتي من حصيلة التبرعات القادمة من الخارج. بل والأهم هو أن بولس، ارتدى حذاء هناك، وهي رفاهية لم يكن ليتنعم بها لو بقي في قريته بالطبع.

تفوق بولس في دراسته، وكان الأفضل بلا منازع بين أقرانه، إلا أنه لم يكن محبوبًا جدًا من إدارة المدرسة. فهو لم يظهر اهتمامًا كافيًا بشأن الأمور الروحية، وبدا أنه يفضل دروس النحو على دراسة الكتاب المقدس، ويستمتع بحصص الحساب أكثر من الشدو في الترانيم المسائية. هو كان مؤمنًا طبعًا، لكن دون إبداء الحماس الكافي، كما كان متوقعًا منه.

وفي سن الخامسة عشر، كان بولس قد أتم شهادته الإعدادية، ويتحدث الإنجليزية والفرنسية بطلاقة، غير إتقانه لقواعد العربية التي كان يدرسها له شيخ أزهري، عينته الإرسالية لتعليم الفصحى لطلبتها. بل أن بولس، وبسبب تفوقه، كان على وشك التعين كمدرس للنحو في أحد مدارس الإرسالية في طنطا، لولا أن شكوكًا حول التزامه بالإيمان البروتستانتي، ومدى تمسكه به، قد حالت بينه وبين ذلك المستقبل المضمون. كان اللفظ من سلك الإرسالية مؤلمًا للفتى الذي كان لا يزال غضًا، فخواجات الإرسالية كانوا كل شيء بالنسبة له، عائلته، وكنيسته، ومدرسته، ومستقبله المهني، وأبديته، كل شيء حقًا. فكيف لهم أن يتخلوا عنه بكل تلك البساطة، لمجرد أنه لم يكن يبكي بحرقة كبقية الأطفال عند سماعهم للعظات المسائية التي كانت تذكرهم بخطاياهم وعذابهم الأبدي المستحق عليها!

سرعان ما أتيحت أمام بولس، رباية الخواجات، كما كان دائمًا يقول عن نفسه، الفرصة ليثبت أنه جدير بأن يكون مثلهم وفي زمرتهم. تحصل بولس بعد تخرجه من المدرسة على وظيفة متواضعة في شركة

استصلاح وادي كوم أمبو. وترقى فيها بدأب، حتى وصل إلى درجة الباشكاتب، وهو ما زال في منتصف العشرينيات من عمره. فبفضل إتقانه للغات الأجنبية، وتفانيه البروتستانتي في العمل، لم يجد مشقة في نيل حظوة لدى مديري الشركة الذين كان معظمهم من الأجانب واليهود المصريين. وهم كانوا نوعًا مختلفًا من الخواجات، غير خواجات الإرسالية بالطبع. واجه بولس بعض الحيرة في البداية لتفهم الفرق الواسع بينهما، لكنه كان سريع التعلم، والتقط في ظرف أسابيع اللازم فعله ليكون واحدًا منهم. ففي الحفلات المسائية لنادي الشركة التي كانت تلطف ملل المعيشة في كوم أمبو بنهاية كل أسبوع، كان يسكر، ويرقص، ويتصرف مثلهم تمامًا. فهو كان قد نسي ما تبقى في ذاكرته من قراءات الكتاب المقدس الإجبارية، والكثير من إيمانه المسيحي الذي كان مشكوكًا به في الأساس. ولم لا، فالحياة كانت مرضية جدًا، وأغدقت بسخاء عليه من ملذاتها البريئة، وكل شيء كان يسير إلى الأفضل يومًا بعد آخر.

لكن كما كان يلعن جدي اسم أسعد دائمًا، فإنه كان لا يكف عن صب اللعنات أيضًا على عبد الناصر، في كل مناسبة ممكنة:

"ربنا يحرقه مطرح ما راح، بحق العذاب اللي وراه لنا".

فبعد رحيل معظم أعضاء مجلس إدارة شركة وادي كوم أمبو، ومعظمهم من اليهود، بعد عام ٥٦، قررت الإدارة الجديدة بعد تأميمها، حزمة من الإجراءات لتمصير الشركة، فتم تسريح كافة

الموظفين الأجانب، ونسبة كبيرة من اليهود والأقباط، وكان من بينهم جدي للأسف. وكان هذا ربما قرارًا منطقيًا، فنسبة المسلمين في الوظائف المكتبية في الشركة قبلها، لم تكن تتجاوز العشرة بالمئة. لكن بولس الذي انتهى بعد تسريحه كعامل يدوي في الوردية الليلية في شركة "سافو" بالقاهرة، لم يفهم لماذا عليه أن يحتمل عقوبتين معًا دون ذنب، رحيل الخواجات، الذين تركوه وراءهم مرة أخرى، وفي نفس الوقت ألا يجد لنفسه مكانًا بين المصريين.

كانت تلك الضربة القاصمة التي نالها بولس، والتي ظنها عقابًا إلهيًا كفيل بإعادته إلى طريق الرب، لكن ليس إلى إيمانه البرونستانتي، كما كان متوقعًا، بل إلى أصوله التي فقد كل ما يربطه بها من زمن بعيد. بدأ بولس يردد بين الحين والآخر إنه رجع إلى عقيدته الأرثوذكسية أخيرًا. فبعد أن باعه "أسعد العرص" للخواجات، وبعد أن رموه هم في الشارع بعد أن حشوا رأسه بتجديفات لوثر وكلفن، وبعدهم خذله ناصر، لأنه لم يكن مصريًا بما يكفي في نظره، لم يعد له سوى الرب.

"ما أعجب طرقك يارب!" قاطعني أبونا أنطونيوس في عجلة ليختتم قصتي بالنيابة عني، فالساعة كانت قد تجاوزت الرابعة والنصف بالفعل، وكنت مجهدًا ومتأثرًا من القصة، التي لم أروها للغرباء من قبل. اتفقنا على اللقاء الأسبوع القادم في نفس المكان والموعد. ولم يشيعني أبونا ببركاته كالمرة السابقة.

٤

كانت إستر منتشية بابتسامة عريضة على وجهها، وهي تفتح الباب: "وحشتني يا حبي".

اتجهنا إلى غرفتها بعد أن تأكدت أنه لا يوجد ضيوف معها، وطلبت منها أن تجلس وتستمع إلى دون مقاطعة، فالأمر خطير فعلاً، لكن لا داعي للذعر. فقليل من التفكير بروية ربما يكون مفيدًا لموقفنا. لم تفارق الابتسامة وجه إستر، وزاد عليها نظرة فضولية مملوءة بالإثارة وكأنها تتجهز لسماع مغامرة بوليسية.

أخبرتها عن مكالمة علاء المقلقة ليلة رجوعنا من برلين، وعن لقائي اللاحق به، لكن سرعان ما تلاشت نبرة الجدية في صوتي على وقع تعليقاتها، "والله علاء ده هيجننك". كانت إستر قد انقلبت على ظهرها من فرط الضحك، الذي لم يكن مبررًا تمامًا، وبدأت في التقلب بجسدها النحيل على السرير، محاولة الاختباء تحت اللحاف، وهي تتظاهر بالصياح "مصيبة، مصيبة". نجحت حيل إستر المعتادة في تبديد كل إمكانية للجد.

قفزت بحركة مسرحية لإخراج الجريدة من حقيبتي، ونشرت صفحاتها أمامها وكأنني ساحر يتأهب لعرض إحدى حيله، "والله علاء عنده حق، أنت شكلك هربانة من فيلم كارتون". وبقفزة أخرى، كنت معها تحت اللحاف، تعانقنا لبضع دقائق قبل أن نبدأ بقراءة عنوان الصفحة الثالثة بصوت عالي في نفس واحد، "أجانب في حركة كفاية" بالبنط الأحمر العريض، يتبعه عنوان ببنط أصفر "ألمانية تدعى إستر وتعمل بالجامعة الأمريكية.."

ظهر الانزعاج أخيرًا على إستر، "دول حاطين صورتنا كمان". كانت صورة جماعية لنا، في أحد مقاهي وسط البلد، مع ياسر وعلاء وصديقة إستر السودانية مريم، وزوجها مايكل، تتوسط الصفحة.

لكن انزعاج إستر من نشر صورة خاصة دون أذن منا، سرعان ما تبدد وهي تردد في بهجة "دول حاطين شريط أسود على عنينا، زي المجرمين في صفحات الحوادث".

كان عليّ أن أقرأ خاتمة للموضوع أكثر من مرة أمامها، حتى تتبين خطورة الأمر، فالكاتب يدعي أن إستر مع عدد من الأجانب الآخرين الذين سرد تفاصيل دقيقة عن عملهم ودراستهم في مصر، يقومون بتقديم تمويلاً ماليًا وتدريبًا سريًا لأعضاء حركة كفاية. وبالتعاون مع عدد من المصريين المقربين إليهم، فإنهم يدبرون مؤامرة لقلب نظام الحكم. وفي السطر الأخير من المقال، يدعو الكاتب السلطات للقبض على المتورطين، بتهمة التجسس والخيانة العظمى.

"الموضوع مش تهريج يا إستر، دي فيها إعدام"

انتفضت إستر على وقع كلمة الإعدام. كان ذعرها ما أبتغيه بالطبع، فهي دائمًا ما تعاملت مع الأمور بخفة مفرطة، لكنني أيضًا لم أكن راغبًا في أن يصل ذعرها إلى حد الهيستريا. كان على طمأنتها قليلا، فالأمر ربما يكون مجرد محاولة لتشويه صورة كفاية، أو توجيه رسالة من النظام لأعضائها وغيرهم من الأجانب، بأن الجميع تحت المراقبة. بل والأوقع أن صحفيًا تافهًا، أراد أن "ياخد بنط" عند رئيس التحرير، المقرب من لجنة السياسات. فكتب موضوع ساخن، محشو ببعض النميمة من هنا أو هناك، والتي يستطيع أي صحفي مبتدئ من التقاطها بعد يومين من الجلوس على مقاهي وسط المدينة.

"يعني، يا حبيبتي، هو الأمن لو عايز يقبض علينا، كان قبض علينا من زمان، أو واحنا راجعين في المطار مثلاً."

عادت إستر إلى هدوئها، فتلك الاحتمالات التي قضيت الليلة الماضية في حبكها، كانت مقنعة إلى حد كبير، وإن كان كلانا موقنًا بأن تحركات الأمن لا تتبع بالضرورة منطقًا يمكننا توقعه بسهولة. اتفقنا على أن نخفف من وتيرة لقاءاتنا بقدر الإمكان، وتبرعت هي باقتراح ألا نظهر في الأماكن العامة لبعض الوقت، حتى نتبين مدى خطورة الأمر. لكن، ما لم نستطع حسمه، هو إن كان علينا إعلام الآخرين بالأمر، حتى يأخذوا حيطتهم هم أيضًا، أم أنه لا داعي لإثارة قلقهم الآن.

"تعرف إيه عكس كلمة مسلم؟"

هربت إستر إلى عالم الكارتون، كالعادة، فليس هناك أكثر كارتونية، من مدرسة "الفرقان" التي تدرس فيها الفصحى. فبعد كل حصة في المدرسة التي يفضلها الأجانب لصرامة برنامجها الدراسي القرآني، وأسعارها الرخيصة، تعود إستر بعدد لا بأس به من الحكايات المضحكة. في اليوم السابق، سألت المدرسة طلبتها عن ضد كلمة مسلم، وبعد دقيقة من التردد على وجوه الطلبة الأجانب، أجابت المدرسة على سؤالها بأن عكس كلمة مسلم هي كلمة كافر. أخبرتني إستر أن بعض من زملائها كانوا غير راضين عن الإجابة، وأن أحدهم جزم بأن مسلم لا ضد لها، وأن هناك أديان أخرى كثيرة، لكن المدرسة لم تتزحزح عن موقفها، في النهاية. لم تكن هذه هي النكتة، في الحقيقة، فإستر وفي طريق عودتها بالتاكسي من المدرسة إلى البيت، وجدت فرصة سانحة لاستخدام معارفها اللغوية الجديدة، فالسائق بعد ما أثنى على تمكنها من العربية، ظانًا أنها تتعلمها لقراءة القرآن، سألها إن كانت مسلمة، وبلا تردد قذفت إستر بإجابتها في وجه السائق: "لا كافرة، الحمد لله".

قاطع ضحكاتنا، طرقات خفيفة على باب الشقة. وانتفضت إستر واقفة على السرير، فهي لم تكن تنتظر زوارًا هذا الصباح. للحظة، كنت مترددًا في إن كان علي البقاء في الغرفة، أم الذهاب معها لملاقاة الزائر غير المتوقع. لم تكن لمثل هذه الحيرة أن تراودنا قبل يومين فقط. لكن من الواضح أن التفاصيل المعتادة للأمور ستصبح من اليوم عبئًا يتطلب الحرص، والكثير من الحسابات الفورية.

"تعال معايا، ما تسبنيش أروح لوحدي"

كانت دعوة إستر التي شابها بعض التوسل، مبررًا لي للتظاهر بأنه ليس هناك ما يقلق: "لا خليك أنا هروح أشوف مين، ما تخافيش هما ما بيجوش غير الفجر على العموم. "

"أنا كنت متأكد أنك هتكون هنا، كويس".

لم يكن الزائر سوى علاء، الذي فضل أن يتفادى المكالمات الهاتفية من باب الحرص. بدا ضيفنا راضيًا عن دقة تخمينه بوجودنا في البيت، وإن تظاهر بالخجل عن قدومه المفاجئ الذي حتمته الضرورة. تلكأت إستر قليلاً، قبل أن تنضم إلينا في غرفة المعيشة. ولم يضع علاء الكثير من الوقت، فبمجرد وصولها بدأ في الكلام في صلب الموضوع، دون أي مقدمات.

الخيط الوحيد الذي يرى أنه من الممكن لنا أن نتتبعه هو الصورة. فكيف وصلت الصورة التي التقطناها قبل عدة شهور إلى الجريدة؟ لم يحتج الأمر للكثير من التخمين، فإستر كانت قد طبعت أربع نسخ منها قبل شهرين، واحدة احتفظت بها، وواحدة لياسر وواحدة لعلاء، وأهدت الأخيرة مع برواز لمايكل في عيد ميلاده قبل شهر. كان المسار الذي حدده علاء للتخمين منبئًا بمواجهة قادمة، لم أشك في حدوثها. فإستر كانت قد بدأت بالفعل بالشعور بالتوتر، الذي كان واضحًا في صوتها:

"لا مريم ولا مايكل ممكن يعملوا حاجة زي كده أبدًا"

كان تعقيب علاء بأن وضعهما في البلد، هو الأكثر هشاشة بيننا جميعًا، وربما وقعوا تحت ضغط أو ابتزاز ما. وجدت إستر نفسها مضطرة للدفاع عن صديقيها الأقرب في القاهرة، فمايكل، الذي انتقل قبل بضعة أعوام، إلى القاهرة، على أمل الحصول على اللجوء إلى أوروبا، صحيح أن وضعه القانوني غير مستقر. فإقامته في القاهرة معتمدة على تجديد تأشيرته السياحية كل بضعة شهور، لكنه صديق مخلص، ولا يمكن تصور أن له علاقة لا بالصحافة ولا بالأمن.

أما مريم، التي تعمل متطوعة في منظمة دعم ضحايا العنف من اللاجئين التي تعمل بها إستر، فهي خارج نطاق الشك بالكامل.

"دي بتموت نفسها في الشغل معايا، عشان الناس المظلومة، وما بتبطلش عياط عليهم كل يوم".

لم يبد علاء راضيًا عن دفاع إستر وحدتها، لكن ارتفاع نبرة صوتها في جملتها الأخيرة، دفعه للانتقال لي لتوجيه الأسئلة.

"أنا معرفش ياسر كويس، صحيح هو اللي معرفنا على بعض، بس أنت تعرفه أكثر".

حاولت أن أتحاشى الوقوع في فخ الدفاع عن صديق عمري، فالأمر لن يقود إلا لشكوك حول حياديتي، وقدرتي على التفكير في الأمر بشكل متجرد من العواطف. بدأت بأن هناك ما يكفي من

الأسباب للتوجس من ياسر، فمنذ تعرفه على خطيبته قبل عام، فإن لقاءاتنا أصبحت متباعدة، وانشغاله في مشاريع "البيزنس" التي ظهرت فجأة بعد خطوبته، ليست المبرر الوحيد لاختفائه. فخطيبته، التي لا تنتمي لدوائرنا بالطبع، وعبرت في مناسبتين عن استيائها من طموحاتنا المهنية المتواضعة، نجحت بالفعل في دفع ياسر إلى دوائرها الراقية. فمنذ بضعة أسابيع فوجئت به معها على شاشة التليفزيون في افتتاح لمعرض للوحات، متأبطًا ذراع وزير الثقافة.

"ما خبيش عليك، ياسر تقريبًا بقى واحد منهم، بس بيعمل كده، ما ظنش!"

لم يظهر علاء مهتمًا بالتعليق على شكوكي حول ياسر، والتي قطعًا قد فهم أنها مفتعلة من جانبي بغرض إضفاء المصداقية حول دفاعي اللاحق. لكن أيضًا أسئلته الاتهامية عن مايكل وزوجته وعن ياسر، لم يبدو هو نفسه مقتنعًا بها، فهي غالبًا كانت تمهيدًا، بغرض استثنائهما من الشكوك، ليخطو تجاه المتهم الرئيسي.

"طيب يا إستر، أنا الصورة بتاعتي عندي في البيت، النسخة بتاعتك موجودة؟ "

اندفعت إستر إلى غرفتها غاضبة، وغابت لبضع الوقت. لم يكن هناك المزيد الذي يمكن أن نتحدث عنه بشأن الصورة، فاقترحت على علاء أن ننتقل للمطبخ حتى أعد لنا القهوة. كان الوقت قد أصبح مناسبًا له حتى يقترح علي خطته التي أعدها للتعامل مع الموقف.

"احنا نروح نستخبى في جزيرة المانجا!"

لم يكن علاء يمزح برغم من ضحكه، فالجزيرة النيلية التي يمتلك بها عم له مزرعة لأشجار المانجو، ويذهب هو إليها لقضاء إجازته الشتوية كل سنة، مكان مناسب لكلانا للابتعاد عن الأنظار لمدة أسبوعين. كانت الفكرة جذابة بما يكفي لأن أوافق عليها فورًا، ودون تفكير فيما سيحدث لإستر خلال فترة غيابي.

"إستر مش هتنفع تيجي أسوان طبعًا، وإلا إحنا كده نبقي بنسلم نفسنا، أبقى راضيها يا شريف بكلمتين".

لم يخطر ببالي أن اختفاءنا لمدة أسبوعين سيكون كافيًا لتبخر الخطر، أو أن أمرًا خارقًا سيحدث خلالهما يبدد مخاوفنا. فلدينا الآن، حتمًا، ملف في أدراج أمن الدولة، ويمكن أن يخرج لغرض أو لآخر لا يمكن توقعه، بعد أسبوعين أو شهر، أو حتى بعد عشرين عامًا. لكن بعض الهدوء سيكون مفيدًا، بكل تأكيد. ولو تم القبض علينا لاحقًا، فلا مانع أن نكون قد استمتعنا بفرصة أخيرة من الاستجمام. صارحت علاء، بأن خطته هي أسخف ما كنت أتوقع أن أسمعه منه، وأنها بلا شك دليل على أنه وصل إلى نفس المستوى من اليأس، مثلي تمامًا.

"مش لاقية الصورة، دورت عليها في كل حتة"

وقفت إستر أمامنا وهي منكسة الرأس، متحاشية أن يلتقي وجهها بعيوننا. وصل علاء إلي مبتغاه أخيرًا، فشكوكه كانت في محلها، والآن

فرصته لطرح الأسئلة. احتاج الأمر نصف ساعة على الأقل، كانت إستر مضطرة أن تجيب خلالها بالتفصيل على أسئلة علاء عن المكان الذي تضع به صورها، ومن اطلع عليها مؤخرًا، ومدي علاقتها بهم، وخلفياتهم المهنية، والسياسية، وإن كانت ربما أخذت الصورة معها خارج المنزل، وإن كانت تتذكر المرة الأخيرة التي رأت فيها الصورة. بلغ علاء من الوقاحة أن طلب أن يدخل إلى غرفة إستر ليتفحص المكان الذي تحتفظ فيه بألبومات صورها، وهي لم تمانع. لكن تجوله في الغرفة، ومحاولة تذكر كل تلك التفاصيل كانت بلا طائل، فكلانا معتاد على استقبال الضيوف في الشقة بشكل شبه يومي بالمنزل.

وجدت نفسي عاجزًا أمام ما يجري، فالخوف الذي منعني من النوم الليلة الماضية، لم يكن هو الخوف الذي أراه الآن أمامي، فكيف تلبس علاء دور المحقق فجأة؟ وكيف استسلمت إستر بتلك البساطة لموقع المتهمة؟ ولماذا وجدت نفسي مضطرًا لسرد عريضة اتهام ضد ياسر، قبل أن أتقمص دور محامي الدفاع بعدها؟ ربما لم يصل الأمر إلى حد أن يخاف أحدنا من الآخر بعد، لكنه ربما كان الخوف من أن نكتشف فجأة أن صديقًا مقربًا قد وشى بنا، الخوف من ألا نستطيع إخفاء الأمر عن الآخرين، أو أن نقابلهم في اليوم التالي، ونتظاهر بأنه ليس هناك ما نخبرهم به، الخوف من ألا يصبح الشعور بالثقة في أي شيء بعد اليوم ممكنًا، الخوف من أنفسنا لا من شيء خارجي.

"يعني أنت مبتقفليش باب أوضتك بالمفتاح لما بتخرجي من البيت؟"

كانت هذا سؤال علاء الأخير، الذي فقدت بعده إستر ما تبقى من صبرها. بدأت في الصراخ، بنفس القوة التي كانت تصرخ بها في أبيها قبل أسبوعين، "أنت اللي شغال في الصحافة، وتعرف كل اللي شغالين في الجرايد"، انهالت إستر على علاء بسيل من الاتهامات، لم تستطيع اعتذاراته المتتابعة من إيقافها.

"ينفع كده يا شريف، يعني مشافهومش وهما بيسرقوا، يشوفوهم وهما بيتخانقوا".

شجعتني دعوة علاء لتهدئة الموقف، للتقدم ناحية إستر، بنية احتضانها. لكن إستر، وكما توقعت، دفعتني بقوة بعيدًا عنها، وهي تصرخ هذه المرة في وجهي: "يعني إيه؟ بيقول إيه ده؟" كان عجز إستر عن فهم معنى ما قاله علاء، سببًا آخر لغضبها، فربما ظنت أنه استخدم عبارة دارجة يتعذر عليها فهمها، لمجرد إهانتها.

لم يكن أمامي، سوى أن أصطحب علاء إلي الخارج، وطلبت من إستر أن تهاتفني في المساء. نزل كلانا الطوابق الخمسة على السلم، دون أن ننبس بكلمة. وافترق كل واحد منا، بحركة عفوية، في طريق مختلف إلى محطة المترو، حتى لا نلفت الانتباه.

٥

جرت الأمور في البيت هذه المرة كالمرة السابقة. الست مرية تمسكت بالصمت لأسبوع آخر، وإن التزمت بطقوس اختيارها لملابسي وكيها قبل موعدي. وكان الطريق من البيت إلى الغرفة ذات الباب الأخضر ممهدًا بخليط من الشعور بالسكينة وفضيلة الواجب، كآخر لقاء لي مع أبونا. الفارق الوحيد، أنني شعرت بمزيد من الألفة مع وجوده أمامي، إلى حد أصبح معه حضوره من عدمه بلا معنى. فبمجرد أن بدأت بالكلام، لم أكن مهتمًا بالتأكد من إن كان منصتًا أم لا، وبالكاد انتبهت لمداخلاته القليلة هذه المرة. ربما الأمر كله كان متعمدًا من جانبه، فخبرة السنين قد دربته على حيله الاختفاء، ليدع من أمامه في مواجهة أنفسهم وأمام قصصهم الدنسة. أليس هذا منطق الاعتراف أصلاً؟ أي أن تتماهى صورة الكاهن مع الحضور الإلهي، فالله هو الله لأنه خفي على الحواس، وعصي عليها. أليس هذا المبتغى الأسمى لأي سلطة؟ أي أن يضحى اختفاؤها هو سر حضورها الكلي.

"طبعًا، هتحكي لنا النهارده عن الجيل التاني، ولا إيه يا بشمهندس؟"

لم يكن الرجل مخطئًا أبدًا، كنت قد تحججت بأن هذه هي طريقة الكتاب المقدس في سرد الوحي، تبدأ الأسفار هكذا، بسلسلة الأنساب لأبطاله، وقصص الأجداد جيلاً بعد آخر. يسقط آدم في الجنة، فنحمل جميعًا خطيئته الأصلية. وتستسلم حواء لغواية الحية، فترث كل بناتها آلام المخاض. وعد الرب إبراهيم بأرض الموعد، فيرثها نسله الذي كرمل البحر. وحين يهرب يعقوب من المجاعة إلى مصر، يولد نسل الأسباط في أرض العبودية، بلا ذنب./وحدهم الشياطين يحملون وزر أنفسهم إلى الأبد، أما نحن فنحمل نير آخرين لا نعرفهم، جيلاً بعد جيل. كان الرجل مغتبطًا لإشاراتي لكلمة الرب أخيرًا.

"صحيح، يا بني، الكتاب بيقول الآباء أكلوا حصرمًا، وأسنان الأبناء ضرست."

"خليني أبتدي بحوا الأول يا أبونا". كانت ابتسامة الرجل الممزوجة بقدر من السخرية، هي كل ما تذكرته من هيئته في هذه الجلسة. بعد وفاة جعفر، ظلت كنيسته بلا راعي لبعض الوقت. فالطائفة كانت قد فقدت الأمل في أن يستمر كهنتها في المكان لأكثر من بضع شهور. فسمعة الرجل الميت، وذكرى طباعه الخشنة، كانت سببًا في تهرب القساوسة من مهمة رعوية كنيستنا، بحجج مختلفة. أما أبناء جعفر فكان الأمر لا يعنيهم كثيرًا، فكنيستهم الخاصة لم تكن تذكرهم سوى بشطط الرجل الكفيف، وتبديده للقليل الذي يملكه في سبيل الانتقام. كانت الكنيسة بالنسبة لهم نصبًا لانتصار جعفرهم، على السماء وحراسها. نصبًا مكللاً بالدنس طبعًا، فكيف لمباهاة بأن الملكوت يمكن شراؤه وبأن

مفاتيحه لها أن تنتقل من يد ليد، أن تكون أساسًا لكنيسة طاهرة؟ ظلت العائلة لعدة سنوات، وفقط من باب الوفاء لذكرى جعفر، تستدعي كهنة من الطائفة لإقامة قداديس العيدين، وطقوس العماد والزواج والدفن لأفرادها، في الكنيسة، وهو ما استجابت له المطرانية في أغلب الأحيان.

إلا أن الأمر لم يستمر طويلاً، فلسبب ما، استدعى مركز الشرطة كبار العائلة، وبلغهم بأن الكنيسة وبما أنها غير مستخدمة معظم الوقت، فإن قرارًا قد صدر بإغلاقها، ومع أن القرار ليس رسميًا، فإن أي تعدي عليه سيكون له عواقب وخيمة. تدعي جدتي بأن الأمر كله كان بسبب العداوة مع كنيسة الأرثوذكس في القرية، وأن إشاعات روجها كاهنها الجلف بأن الكاثوليك كانوا يسعون لتنصير المسلمين سرًا، كانت السبب الخفي الذي استدعى تدخل المركز.

وفي رواية أخرى لها، تبدو أكثر إقناعًا، تقول الجدة بإنه بعد أسابيع من النكسة، حدث أن قام بعض الصبيان بالاعتداء على الراهب الإيطالي الذي أرسلته الطائفة لإقامة طقس العماد لأحد أطفال العائلة، بينما كان في طريقه من محطة القطار إلى الكنيسة. والأمر تطور سريعًا، وتجمع بعض الأهالي حول الكنيسة، وحاولوا منع الراهب من دخولها. وذهب بعضهم للتجمهر أمام بيت العائلة أيضًا، وهم يصرخون في وجه أبنائها: "يا صهاينة". فأحد مسؤولي الاتحاد الاشتراكي في القرية، كان في تلك الجمهرة، وادعى أن العائلة اعتادت على ترك مصابيح بيوتها مضاءة أثناء الغارات، ليرسلوا إشارات لطيارات اليهود، وأن

الراهب ليس إلا جاسوسًا أمريكيًا متخفيًا. لم تهدأ الأمور سوى بعد أن خرجت جدتي إليهم، وشقت ملابسها، وبدأت في لطم وجهها وهو تدور على المتجمهرين في الخارج بصورة عبد الله، خال أمي الذي قتل على الجبهة في حرب ٥٦، وهي تصرخ بعلو صوتها: "احنا صهاينة، يا كفرة، أمال ده مات ليه؟"

مر الأمر بسلام، باستثناء نافذة محطمة في صحن الكنيسة، وبضع جروح سطحية أصابت أحد أخوالي. ربما كان هذا سبب القرار بإغلاق الكنيسة، لقطع رجل الخواجات، وتفادي المشاكل، وربما كانت وشاية الأرثوذكس، أو الاثنين معًا.

المهم، نالت أمي سر عمادها في كنيسة الكاثوليك في مركز المحافظة، والتي كانت تذهب إليها في العيدين وفي المناسبات العائلية الأخرى، وغير ذلك لم تدخل كنيسة الأرثوذكس مرة واحدة، لا في طفولتها، ولا بعد انتقالها للقاهرة للدراسة في الجامعة، والعمل لاحقًا. الحقيقة أن الست مرية، حملت معها ـدون اختيار بالطبعـ ثأر فراولة، مضافًا إليه وزر النكسة التي أغلقت كنيستها، فلا هي كانت قبطية كما يجب، ولا مصرية بما يكفي في أعين الآخرين.

تعرف أمي القليل عن الإنجيل أو الكنيسة، مرات تقول "احنا كوتاليك"، هي حتى لا تعرف طريقة النطق الصحيحة لاسم طائفتها، ومرات أخرى تقول "مفيش فرق بين الكوتاليك والأقباط، واحنا في الأصل أرثوذكس"، وفي كل مرة حاولت أن أصحح لها جملتها بأن

الأقباط غير الأرثوذكس كانت تطلب مني التوقف عن السفسطة. وفي مرات أقل، كانت تلوح بيدها لي في يأس: "إحنا لا كده ولا كده، هملنا زي اللي رقصوا على السلم".

تحتفظ الست مرية في صالة البيت، بصورة للبابا شنودة وبجانبها تمامًا صورة للبابا يوحنا بولس، تتبرك بهما أحيانًا معًا، أو بواحدة منهما بحسب المناسبة. لديها أيضًا، نسخة كاثوليكية للكتاب المقدس، مطبوعة في بيروت، وتغطيها دائمًا غلالة رقيقة من الغبار، وبجانبها يرقد كتاب الأجبية الأرثوذكسي، المُقسمة صفحاته إلى عمودين، واحد للتسبيحات بالقبطية المكتوبة بالحروف العربية، والآخر ترجمة لها بالعربية. وفي الأمسيات الكثيرة التي يغلبها فيها الضجر، تخرج الأجبية وتمتم بتسبيحاتها القبطية، التي لا تفهمها، كطلاسم سحرية. تحتفل أمي بعيد الميلاد مرتين، مرة في ديسمبر مع الكوتاليك، ومرة في يناير "زي الناس"، تمسكت الست الوالدة بطقس العيد مرتين، حتى وقت قريب، بمبرر وحيد:

"عشان نعيد زي الخواجات".

أمي ليست خواجاية كما تعلم يا أبونا، ولا تعرف عن الخواجات الكثير، والمرة الوحيدة التي التقت أحدًا منهم، كانت حين قابلت إستر، ولم يطمئنها إليها سوى أنها قد سمعتها "بترطن بالعربي، زي المصريين".

الست الوالدة، ريفية حتى النخاع، وحتى بعد خمسين عامًا في القاهرة، لا زالت كما هي، لكنها تفهم تمامًا ما يعنيه أن تكون "زي

الخواجات" أو أن يكون "الخواجات زي المصريين". وتعلم أنها مرغمة أن تكون من "اللي رقصوا على السلم" بين الاثنين، لا لسبب سوى قدرها العسر.

"بتوع الاتحاد الاشتراكي كانوا بيقولوا علينا صهاينة. طيب يا ريت كنا صهاينة، كان يمكن ارتحنا من الغلب ده".

كانت مرية تفضفض أمامنا بكلمتين بعد كل عركة في العمل مع زملائها المسلمين. وفي الليلة نفسها، كانت تدندن أغنيتها المفضلة وهي تقلي البطاطس، "عبد الناصر حبيبنا، قايم بنا يخاطبنا"، قبل أن تبدأ بتثنية عودها المكتنز، على وقع جملة "نجاوبه ويجاوبنا، قائد ومجندين". أمي تحب ناصر يا أبونا دائمًا، وتكره الاتحاد الاشتراكي بعض الوقت، وأحيانًا تحب الاتحاد الاشتراكي وتلعنه في نفس واحد. فهي لم تنشغل بكل تلك التعقيدات التي ورثتها رغمًا عنها، الأمر في غاية البساطة بالنسبة لها، فمن مثلها ممن لم يترك لهم الجد سوى كنيسة مغلقة، وتركة من الفقر، كيف كان لهم أن يدخلوا الجامعة، أو يحصلوا على وظيفة ميري، دون ناصر، واتحاده الاشتراكي؟

المهم، يا أبونا، وكما تعرف فإن لكل أفراد العائلة اسمان، واحد مسيحي وآخر محايد، ومرية لم تكن استثنائنا، فهي حملت اسم مايسة أيضًا. لكنها سرعان ما تحررت من وزر الاسم الثاني، الذي كان سببًا في معايرتها في المدرسة، "يا مايصة". كانت قد تدربت منذ الطفولة على مراوغة كل تلك السلالم التي وجدت نفسها ترقص في منتصفها، وأن

تجد طريقها بينها بأقل خسائر ممكنة. احتفظت باسم مرية بالطبع، فهو اسمها في البطاقة الشخصية، واخترعت اسمًا آخر لنفسها، كانت فخورة بأنها من اختاره دون وصاية من أحد. ماري، الاسم الذي كان يناديها به زملائها في العمل، لم يكن ميراثًا تلقته من آخرين، ولا وزرًا عليها أن تحمله بصبر، بل إنجازها الشخصي الوحيد، وعلامة لامتلاكها لمصيرها. كانت الست الوالدة تتبادل استخدام الاسمين في العمل بحسب الظروف، فهي ماري، حينما تكون الريح مواتية في العمل. لكن في أحيانًا أخرى، وعندما تتأزم الأمور، كانت تخرج مرية من جعبتها، "على فكرة أنا اسمي على اسم الست مرية القبطية، مرات النبي".

لم يكن الأمر صعبًا في النهاية، فالست الوالدة كانت تتبدل كما تقتضي الأمور، لكن الأمر الوحيد الذي كان صعبًا عليها تجاوزه كان شأن الزواج. فولاد الناس يتعرفون على بعض في الكنائس طبعًا وهي لم تكن تذهب إليها سوى في الأعياد. والعائلة لم يحصل من رجالها على مؤهل عالٍ سوى اثنين، وكلاهما تزوجا قبلها، وهي لن تقبل سوى براجل جامعي. أما زملاؤها الأقباط في العمل وأبناء الجيران والمعارف، وهم من الأرثوذكس، فكانوا يفضلون الزواج من بنات طائفتهم بالتأكيد.

تقول الست الوالدة إن اسم ماري، هو ما أنقذها من العنوسة. فبعد يوم واحد من بلوغها الخامسة والثلاثين من عمرها، أخبرها الأستاذ نجيب زميلها في العمل، أن واحدًا من الزملاء الذي يعمل في أحد فروع الهيئة كان قد سمع بها، وأن اسم ماري وقع على أذنيه

كالسحر، وهو يود أن يقابلها هذا الأسبوع بعد ساعات الدوام، بغرض التعارف. لم يكن هذا الزميل سوى والدي بالطبع. وهي لم تتردد في القبول، بمجرد ما تأكدت من الأستاذ نجيب من أن العريس حاصل على مؤهل عال.

لم يكن هناك في الحقيقة ما يغري في تلك الزيجة، فسمعة الوالد شديدة السوء، كانت قد تجاوزت فرع الهيئة الذي يعمل به إلي مقرها الرئيسي، وفضائحه وصلت إلى آذان أمي في جلسات النميمة المعتادة أكثر من مرة. غير هذا، فالعريس ما زال يسكن في نفس البيت مع والديه، ومعروف عنه اعتياد السلف بدءًا من الأسبوع الثاني من الشهر، وكذلك التعثر في رد الدين في معظم الأحيان. لكن الميزة الوحيدة في العريس كانت أنه من نفس الصنف، "اللي رقصوا على السلم"، بل وأن رقصه كان أكثر عنفًا منها، وسلالمه أطول وأكثر. وأنا طبعًا، يا أبونا سأخبرك بالتفصيل عنه في لقائنا القادم.

لكن باختصار، فالعريس لم يكن ممانعًا من أن يتزوج كاثوليكية من خارج ملته، وهو الأمر الذي كان يتحاشاه الجميع لا لأسباب روحية فقط، بل لأن الطلاق في الزيجات مختلطة الملة أمرًا ممكنًا، وهذا أمر يخشاه الأقباط جميعهم وبالأخص رجالهم. ولم يكن العريس أيضًا مهتمًا إذا كانت ماري تذهب إلى الكنيسة أم لا، فهو لم يكن يدخلها ولا حتى في الأعياد. أما عن سر الزواج، والذي لم يعد ممكنًا عقده بين رجل وامرأة من ملتين مختلفتين في الكنيسة الأرثوذكسية، فإن العريس لم يكن ممانعًا في عقده في أحد كنائس ماري الكاثوليكية. بل وأنه حتى لم يعرف

في كنيسة أي طائفة تم العرس، فكل الكنائس والقساوسة يشبهون بعضهم بعضًا بالنسبة له.

"أيوه يا شريف، قبل ما نخلص بس، أنا بشوف ماما في الكنيسة تقريبًا كل يوم، وده غير كلامك خالص".

وافقت على كلام أبونا، وأخبرته بأن الست الوالدة بالفعل ومنذ طلوعها على المعاش، ولأسباب عملية بحتة، وقع اختيارها على كنيسة شارع ألفريد، فبالرغم من أن هناك كنيسة كاثوليكية في الحي، إلا أنها بعيدة، فيما كنيسة شارع ألفريد الأرثوذكسية، على مقربة عشر دقائق فقط عن البيت. وجاراتها ومعارفها في المنطقة، معظمهم من المترددين عليها. وهي ذهبت بالفعل إلى الكنيسة الأخرى، مرة أو مرتين لكن ما صدها عنها لم يكن فقط آلام الركبة المزمنة التي تعانيها، لكن لأن الكنيسة لا تقيم أنشطة أخرى غير قداسي الأحد والجمعة. لكنها هنا، وكما تعرف، تشغل نفسها بمراجعة حسابات مخصصات أخوة الرب من الفقراء، والمشاركة في صرفها، وهو ما يملأ ساعات من يومها الطويل ثلاثة مرات في الأسبوع على الأقل.

والناس يا أبونا، عندما يتقدمون بالعمر، يفكرون في آخرتهم أكثر مما كانوا في أعمارهم التي ولت، ويبحثون أحيانًا كثيرة عن أصل لهم، ربما سقط منهم في طريقهم، أو لم يمتلكوه على الإطلاق في الماضي. ولذا فمنذ تقاعدها، أصبحت أيضًا أكثر مواظبة على قراءة الأجبية، وتعيد قراءة تسابيحها، مرتين في كل صلاة، بالقبطية أولاً

وبعدها بالعربية لتفهم صلواتها أخيرًا. والأهم من هذا كله، فهي أصبحت، حين يزعجها شيئًا ما، تردد جملة لم أسمعها منها من قبل:

"احنا نصارى، وولاد النصارى، وهنفضل نصارى وبس".

ابتسم أبونا أنطونيوس وعلى وجهه علامات الرضا بما سمعه، فهو قد رأي طريقًا آخر للرب في جلستنا، قبل أن يختم لقاءنا بالبركة الرسولية، والتأكيد على موعد جلستنا التالية في نفس المكان والساعة كعادته.

٦

وصلت متأخرًا قليلاً على موعدي مع علاء، وإن كان أمامنا نصف ساعة أخرى قبل انطلاق القطار الذي سيأخذنا إلى جزيرة المانجا. مد علاء يده، ليناولني تذكرتي، وعلى وجهه بعض التبرم.

"يعني صممت برضه تشترى أغلى حاجة!"

تعلل علاء في مواجهة اعتراضي على تحميله لي بالكثير من الجمايل، والتي لن أقدر على ردها، بأن رحلتنا طويلة، ولا داعي أن نشقي أنفسنا بمعاناة التكدس ورائحة العرق في عربات الدرجة الثالثة.

"يعني مش هي دي الطبقة العاملة بتاعتك يا عم الماركسي؟"

لم يمهلني علاء سوى ثانية واحدة، قبل أن يعاجلني بأحد قفشاته الحادة والتي نادرًا ما يلجأ إليها: "أنا عندي استعداد أموت عشان الطبقة العاملة، أتسجن عشان الطبقة العاملة، بس ما أركبش معاها القطر".

كانت ضحكاتنا كفيلة بتبديد التوتر الذي تسبب فيه وصولي متأخرًا، ووجدت الفرصة مناسبة لتبريره. أخبرت علاء بأن مهمة

ترتيب الأمور في العمل قد أخذت أطول مما توقعت، فبما أننا كنا بنهاية العام، وقد استنفدت معظم إجازاتي، خاصة بعد الرحلة إلى برلين، فلم يكن أمامي سوى اللجوء إلى خطة لا تخلو من بعض المخاطرة.

بالرغم من أن مهام وظيفتي في الإدارة الهندسية، بالهيئة التابعة لوزارة الثقافة، لم تتطلب سوى التوقيع على أذون صرف لمصباح كهربائي أو شطافة كل بضعة أيام، والتوقيع على مأموريات للمشرفين وعمال الصيانة للتغيُّب عن المقر الرئيسي، والذهاب للقيام بأعمال صيانة خفيفة في مقرات الهيئة الفرعية، فإن مسألة حضوري يوميًا، كان محلاً لخلاف دائم مع مديري. وهو إن تغاضى أحيانًا كثيرة عن اختفائي بالساعات، إلا أنه لطالما رد على تبرمي من جدوى إصراره على تواجدي يوميًا، دون عمل للقيام به: "وظيفتك التواجد، يا شريف.. التواجد".

كان عليّ الادعاء أمامه، هذه المرة، بأنه عليّ التغيُّب لبضعة أيام عن العمل بسبب شأن عائلي طارىء، ووعدته بأنني سأكون قادرًا على القدوم إلى المكتب، إذا كان هناك ما يستوجب حضوري. وافق الرجل على مضض، بعد أن لوحت بأن رفضه لن يترك أمامي سوى أن أتغيب الأسبوع كاملاً بحجة المرض. لكن ولأن كلانا كان يعرف أن وعدي بالحضور عند الحاجة مجرد كذبة صغيرة، فكنت ملزمًا بأن أجد طريقة لتصريف شؤون العمل في غيابي.

كان انتظار ظهور "عبد العظيم" هو الذي تسبب في تأخري. فمع أنني أكدت عليه أن نلتقي في حدود الثانية عشر ظهرًا، فإنه لم يظهر في المكتب سوى في الثالثة، وقبل موعد القطار بساعة واحدة فقط. لم يكن تعويلي على عبد العظيم، مؤسسًا على ثقتي به، فهو الأقل جدارة بالثقة بين مشرفي الصيانة بالإدارة. لكن السبب كان ذلك العشم الممزوج بالتواطؤ الذي تطور عبر الأيام بيننا. فعبد العظيم، غير أنه كان فخورًا بسوء سلوكه، وزيجاته الكثيرة، ومداومته على الشراب، كان خفيف الظل، وناقمًا على كل شيء، دون ادعاء أي صورة من صور الصلاح أو الفضيلة. لم يتطلب لقاؤنا سوى بضع دقائق. فبعد أن أعدت على عبد العظيم ما يجب أن يفعله في حالة التبليغ عن عمل للصيانة، وضعت في يده ثلاثة مأموريات موقعة مني باسمه، وتركت خانة التاريخ خالية، بحيث يضعه هو حسب الحاجة، وكذلك ثلاث أذونات للصرف من المخازن، موقعة مني أيضًا، وكافة بياناتها خالية. وشددت عليها ألا يستخدمها إلا عند الضرورة الطارئة.

"عيب يا بشمهندس، مِن أمنك لم تخونه، ولو كنت خاين".

كان هذا الإقرار الضمني من عبد العظيم بالخيانة، هو ما طمئنني أكثر، فهو كان سبب اتكالي عليه من البداية.

"بس اللي أنت عملته مش مظبوط يا شريف".

لم يكن علاء راضيًا عما فعلته بالطبع. فمع أن ما جمع بيني وبينه كان نقمتنا على الكثير مما حولنا، فعلى عكس استهانتي بالقواعد،

وتفنني في خرقها عمدًا كلما أتيحت الفرصة أمامي، فإن علاء كان يحمل توقيرًا ما للنظام، وتمسكًا بالسلوك بحسب الأصول، وظل شعاره الذي لا يتوقف عن ترديده: "امشي عدل، يحتار عدوك فيك".

كنا قد دخلنا إلى عربة النوم التي بدت لي وثيرة أكثر من اللازم، حين بدأ علاء بإخباري عن موافقة رئيس تحرير الجريدة الصغيرة التي يعمل بها، على أجازاته الطارئة، على أن يقوم ببعض المهام القليلة عبر البريد الإلكتروني. وطمأنني على أن إستر قد هاتفته في اليوم السابق، واعتذرت عما حدث بينهما، وأكدت له بأنها لم تكن غاضبة منه، وإن الأمر كله مفهومًا، على خلفية توترنا، بسبب موضوع الجريدة.

غير هذا لم يحدث ما يستحق الذكر في رحلتنا، فعلاء مُقل في الكلام بطبعه، وأنا بدوري التزمت الصمت، لا لشيء سوى أنني فضلت تحاشي الحديث عما يقلق كلانا. فقط وعند مرورنا بمحطة "كوم أمبو"، وجدت مبررًا لي للكلام عن تاريخنا العائلي المرتبط بالمدينة، وبعض الحكاوي الأخرى المذهلة عنها، فقد كنت قد بدأت في إخبار علاء عن مقترح قديم لتأسيس مستعمرة صهيونية في المدينة وحولها، في نهاية القرن التاسع عشر، ولم تكن الحكومة المصرية تعارضه في الحقيقة، لولا أن هرتزل[1] رفضه، مفضلاً استئجار سيناء على الصعيد.

"تخيل بقى، نكة صغيرة، وكانت إسرائيل تبقى عاصمتها كوم أمبو".

---

1 تيودور هرتزل: كاتب مسرحي وصحفي وناشط سياسي نمساوي، ومن مؤسسي الحركة الصهيونية الحديثة.

قاطعني علاء مبتسمًا، طالبًا مني التوقف عن التخريف، فمن الأفضل لنا أن ننام قليلاً. حاولنا، لكن النوم لم يزورنا ليلتها، فكان هناك الكثير مما يشغل تفكيرنا.

في جزيرة المانجو، كل شيء جرى، كما توقعنا، بل وأفضل. كانت الأيام الأولى فرصة سانحة لكلانا للاسترخاء، وإن كنت قد عانيت من صعوبة في النوم خلالها. تحاشى علاء الحديث عن أمر الجريدة والصورة. شغلنا أنفسنا بالمساعدة في العمل بالمزرعة، وهو الأمر الذي عارضه عمه في البداية، قبل أن يقبل به على مضض، فقد شرحنا له أن أبناء المدينة من أمثالنا، لا تتاح لهم تلك الفرصة كثيرًا، وأن الأمر بالنسبة لنا لا يتعدى كونه وسيلة للترفيه، واللعب.

لكن ومع هذا، فإن العم تمسك بأن يأخذ الأمر على محمل الجد، وكما أغدق علينا بكرمه أثناء إقامتنا، فأنه أيضًا أصر على تزويدي بتفاصيل دقيقة عن المانجو، وأنواعه، وزراعته، ومراحلها، وحتى بأسماء التجار الذين يتعامل معهم في تسويق المحصول. وبين حين وآخر، كان يقطع حديثه، ليخبرني عن علاقاته الطيبة بالأقباط، مشفوعة بقصص عن مدرس قبطي من المنيا، كانت حصصه في المدرسة الابتدائية هي المفضلة لديه، وطبيب بروتستانتي نجح في علاج ابنه الأول بعد أن احتار الأطباء الآخرين في أمر مرضه، وتاجر قبطي كان أكثر من تعامل معهم أمانة ونزاهة، وإن كان بخله الشديد سبب شهرته، وترديد الحكايات المبالغ فيها عن تقشفه غير المبرر. لم تكن تلك الحكايات تزعجني كثيرًا، فقد فهمت أن الرجل المضياف، والذي لم يعرف عني الكثير، كان

يحاول أن يجد موضوعًا مشتركًا لتبادل الحديث، وأنه يبدو وكأنه لم تتح له فرصة للاختلاط بكثير من الأقباط في حياته، وربما هذه هي المرة الأولى التي يبيت أحدهم في بيته، ولذا يحاول أن يبذل قصارى جهده للتعبير عن حسن الضيافة.

كنت معتادًا على أن أستمع لتلك الأقاصيص الصغيرة، من الغرباء في لقاءتنا الأولى، فأنا "قبطي مصر الوحيد" كما اعتاد أن يناديني ياسر منذ أيام الجامعة. وارتضيت بأن تكون بداية علاقتي بهؤلاء الغرباء، مؤسسة على تاريخهم مع من وضعت في خانة واحدة معهم، دون رفاهية القبول أو الرفض. فالأمر دائمًا لم يكن يخل من ذكرى عن مدرس مجتهد في عمله، أو في معظم الأحيان زميل أو شريك في العمل يتمتع بالأمانة. وهو ما كان يتيح لي رفاهية اكتساب تلك الصفات الحسنة في أعين معارفي الجدد، والذين يتحاشون، في معظم الوقت، ذكر خبراتهم السيئة مع أقباط آخرين من باب التأدب، أو يكتفون بأمر البخل، بما أنه أمر يخص أصحابه، ولا يستدعي سوى القليل من المزاح.

في الليلة الثالثة لإقامتنا، هاتفتني إستر، بالرغم من أننا كنا قد اتفقنا على تحاشي المكالمات الهاتفية سوى عند الضرورة. وطلبت مني العودة إلى القاهرة، فهي لم تستطع النوم منذ غادرت، فنوبات من القلق تصيبها بين حين وآخر، وفي النهاية فإن ابتعادنا لأسبوع أو أكثر لم يكن ليحل المشكلة، وعلينا أن نواجهها في كل الأحوال، وعاجلاً أفضل من آجلاً.

حاولت طمأنتها بقدر المستطاع، ووعدتها بأنني سأتكلم مع علاء بشأن عودتي المبكرة. وفي نفس الليلة، جاءتني مكالمة أخرى، من عبد العظيم، هذه المرة. وأخبرني بأنه ذهب في مأمورية صغيرة، في اليوم السابق، لاستبدال بعض المصابيح الكهربائية، وإصلاح مقابض أحد الأبواب، لكن الأمور لم تجرِ على ما يرام للأسف، وانفضحت مسألة غيابي، ولذا فإن عودتي على وجه السرعة أصبحت لازمة. تحاشيت أن أخبر علاء عن المكالمتين، ولكني قررت أن أطلب منه، في اليوم التالي، الجلوس للحديث عن الأمر الذي غادرنا القاهرة بسببه، والوصول إلى قرار نهائي بشأنه.

في ساعة مبكرة من الصباح التالي استيقظت على رسالة ثانية من عبد العظيم، تخبرني بأن المشكلة قد وصلت إلى الشؤون القانونية بالهيئة. لم يزعجني الأمر كثيرًا، فما هي أكثر الاحتمالات سوءًا؟ الفصل مثلاً؟ لم تكن الوظيفة تعنيني، فراتبي الذي لم يتجاوز ٤٠٠ جنيهًا سوى بقليل، لم يكن كافيًا للمواصلات ولثمن السجائر والقهوة التي أستهلكها بشراهة بفعل الملل أثناء ساعات العمل الفارغة. ولم أكن لأبقى في الوظيفة كل تلك السنوات سوى لإرضاء والدتي، وتحاشي تبرمها من بطالتي التي استمرت لعامين بعد تخرجي، إلى أن نجحت في التوسط لي، لكي أحصل على وظيفة في الهيئة التي قضت فيها جل عمرها. حسمت رسالة عبد العظيم ترددي بشأن العودة إلى القاهرة مبكرًا، فبعد وصول الأمر للشؤون القانونية لم يعد هناك ما يمكن إنقاذه، أما عن إستر، فهي أقل عرضة مني للخطر، كونها أجنبية، وأنا غير قادر على حمايتها بأي

حال، دعك من حماية نفسي بالأساس. عزمت على البقاء مدة العشرة أيام كاملة.

كان علاء قد بدا وأنه قد استيقظ من كثرة تقلبي في سريري، إلا أنه أخبرني بأنه لم ينم طوال الليل، وأن ما أقلق نومه لم يكن التفكير في شأننا، بل أمر آخر تمامًا. ففي الليلة السابق، هاتفه رئيس التحرير، وأخبره أن مصادره قد كشفت له أن الداخلية تتأهب لفض اعتصام اللاجئين السودانيين في ميدان مصطفى محمود، وأنه من الأفضل أن يعود إلى القاهرة لمتابعة الأخبار وتغطيتها، فهو الأنسب لهذه المهمة بحكم علاقاته مع بعض المشاركين في الاعتصام، ولم يكن رئيس التحرير يعني سوى مايكل وزوجته.

أخبرني علاء أنه اتصل بعدها مباشرة بمايكل، وحاول إثنائه عن المبيت في الاعتصام كعادته في بعض الليالي. لكن مايكل لم يستمع، وكان غاضبًا من إخفائنا موضوع الجريدة عنه. فإستر لم تستطع كتمان الأمر عن مريم، بدافع القلق عليها، وطلبت منها التظاهر بأنها لا تعرف، حتى نقرر نحن مصارحتها هي ومايكل، وهو ما أخبرتها بأننا كنا سنفعله بكل الأحوال:

"يعني إستر دي سبب كل اللي إحنا فيه".

كان علاء غاضبًا منها لعدم التزامها بما اتفقنا عليه، ومن وضعه في ذلك الموقف المحرج. فمايكل قد أغلق الهاتف في وجهه بعد أن اتهمه

بالرياء، بل وبأنه حتمًا وراء كل ما يحدث. فغالبًا إستر أخبرت مريم أيضًا عن تشكك علاء فيهما.

"يلا يغور في داهية، أنا عملت اللي عليا وحذرتهم، خلينا نشوف الهم اللي احنا فيه".

انتقل علاء سريعًا إلى موضوع الجريدة، فبفضل علاقاته في المجال الإعلامي، كان قد توصل لمصدر كان قادرًا على تحديد اسم الصحفي الذي قام بكتابه الموضوع. وهو كما توقع، صحفي مبتدىء يعرفه معرفة عابرة، وربما قد جالسنا مرة أو اثنتين على مقاهي وسط البلد، وهذا ما أقر علاء بأنه خطأ منه. وبمجرد أن ظهرت على وجهي بعض علامات الراحة لتوصلنا للصحفي أخيرًا، سارع علاء بتبديدها، فالاسم مجرد تفصيلة صغيرة، ولا تفيدنا كثيرًا. فإذا كان الواد "مزقوق من الأمن"، أو أنه بادر بكتابة الموضوع من نفسه، فهذا سؤال، لا وسيلة لدينا، تعيننا على إجابته.

استكمل علاء الكلام، ممسكًا بدفته بالكامل، ولم يكن أمامي سوي الاستماع. فما أجهد نفسه في التفكير فيه في الأيام السابقة، هو الوقائع التي كان ممكن لها أن تلفت أنظار الداخلية إلينا بشكل خاص. فربما هي مظاهرة كنيسة "الزيتون"، التي نظمتها كفاية بعيدًا عن وسط البلد على غير العادة. ففيها قام الأمن بتوقيف القادمين للمشاركة، بمجرد خروجهم من محطة مترو الأنفاق، "حدائق الزيتون". لكن أنا وعلاء، وبحكم أننا من شرق القاهرة، ونعرف مسالك المنطقة جيدًا، نجحنا في

الوصول إلى المكان المحدد لها. وبعدها حاصرنا، نحن الاثنين فقط، عشرات من جنود الأمن المركزي وكاميرات التلفزيون والصحافة.

حاولت تذكير علاء بأن هناك متظاهرًا آخر حينها، كان محاصرًا معنا أيضًا، قبل أن يسمح الأمن لبقية المتظاهرين بالانضمام إلينا نحن الثلاثة في النهاية. لكن علاء قاطعني، بقوله إن المظاهرة، والتي التقطت فيها لنا عشرات الصور بواسطة مصور الأمن، ربما كانت قد جذبت انتباه الداخلية لنا، لكن الأمر لا علاقة له بإستر. فهي لم تظهر في الصورة، سوي بعد قبضة نقابة الصحفيين. فقبل ثلاثة شهور، وبعد أن فض الأمن مظاهرة لكفاية أمام النقابة، بعنفٍ غير معهود، تم إلقاء القبض على أنا وعلاء في طريق مغادرتنا للمظاهرة. وجاءت إستر إلى القسم، في المساء، ومعها ياسر، للاطمئنان علينا، وإحضار بعض الطعام لنا. أفرج عن علاء بعدها بفضل كارنيه نقابة الصحفيين، وأنا بعده بساعتين، بعد أن أصر على عدم الرحيل بدوني، مدعيًا بأنني زميلاً له بالجريدة. لكن مشادة بسيطة بين إستر وأحد الضباط في القسم ليلتها، ربما كانت هي ما لفتت الانتباه لنا جميعًا.

قضينا ساعتين أو أكثر في مناقشة الاحتمالات الكثيرة، لما حدث ولما يمكن له أن يحدث، لكن بلا جدوى، فنحن نواجه وحشًا مخيفًا بألف رأس، لا نعرف ما يدور سوى في واحد أو اثنين منها فقط، ولا يمكننا التنبؤ بالخطوة القادمة له، لا متى يمكن للمظاهرات أن تتم بسلام، ولا متى يتم فضها بعنف، ومن يُقبَض عليه ومن لا، ومتى يصبح كارنيه النقابة كافيًا للإفراج ومتى يكون سببًا في الاحتجاز.

"مفيش فايدة من كل الكلام ده".

قاطعت علاء، وأخبرته بأن الأمر لم يعد محتملاً، فأنا غير قادر على النوم، والكوابيس تهاجمني كل ليلة، وإستر هي الأخرى، بالرغم من تظاهرها بالتماسك، تعاني من نوبات من الهلع، ترتجف على أثرها لساعات، وأنا قد عزمت بموافقته أو بدونها على التوجه لأمن الدولة، بمجرد عودتي للقاهرة، وإخبارهم بكل شيء، وأننا لا علاقة لنا لا بتمويل ولا غيره، وبعد هذا سأترك لهم أن يقرروا ما يفعلونه بي، "وقوع البلا ولا انتظاره".

وقبل أن يبدأ علاء في التعقيب على ما قلته، كان هاتفي قد بدأ في الرنين، بقسوة غير معتادة، وحين رأيت اسم مايكل على الشاشة، التقطت الهاتف، وأنا متهيأ لبعض من غضبه، والذي كان من السهل توقع أسبابه. لكن صوت مريم جاء من الجانب الآخر، عطوفًا كعادتها، وربما أكثر حُنُوًا من أي مرة، وهي تخبرني بأن علي العودة فورًا للقاهرة، فإستر قد تعرضت لاعتداء، وهي الآن في المستشفى.

"ما تقلقش، حبة حاجات بسيطة، وإستر كويسة".

٧

احتفظت الست مرية بصمتها لأسبوع آخر، بتصميم لم أكن أتخيلها قادرة علي تحمل قسوته. حاولت تليين صمتها، بكل الوسائل، مرة بالتظاهر بالاكتئاب ومرة بالنكات ومرات بالحديث عن الماضي. ولمدة ثلاث أيام تظاهرت بالمرض، فكانت تحضر الطعام إلى الغرفة، وتتركه بلا كلمة واحدة. كنت قد توصلت إلى أن الوسيلة الوحيدة إليها هي التلكؤ عن موعدي مع أبونا، فعند الساعة الثالثة إلا عشرة كنت ما زلت في فراشي، لكن حتى هذا لم يحركها على الإطلاق. تجاهلت الوالدة الأمر تمامًا، فيما كانت تشاهد أحد برامج الطبخ في التلفزيون. لم يكن أمامي سوى الخروج من الغرفة، وتوجهت إلى الصالة مباشرة، معاتبا إياها: "كده يروح عليا الميعاد، مش كنتِ تصحيني؟ إيه العِند ده؟" انتفضت مرية عند سماعها كلمة "عِند"، وانحلت عقدة لسانها فجأة، "عِند! إنت اللي دماغك أنشف من الحجر". أخبرتني بعدها أن حضوري لموعدي من عدمه لا يعنيها في شيء، وأنا أيضًا لم أعد أعنيها على الإطلاق، وأن جلساتي مع أبونا ثبت أن ضررها على الجميع، لا علي وحدي فقط، يفوق فائدتها. فبسبب زروطتي المعتادة في الكلام، وعدم

استماعي لنصائحها عما يقال وما لا يقال، استدعاها أبونا إلى مكتبه في اليوم التالي للقائي الأول به، وأخبرها بأنه عرف مني أنها كاثوليكية، وهو شيء كان يجهله في الماضي. ومع أنه قال إنها مرحب بها في الكنيسة في أي وقت، إلا أنها لن تستطيع المشاركة في طقس التناول بعد الآن، وأن عملها التطوعي في الكنيسة أمرًا يتم مناقشته بين كهنة الكنيسة، وإلى حين التوصل إلى قرار، فعليها تسليم مهماتها لمتطوع آخر، سيحدد لها موعدًا للقائه قريبًا. لكن أبونا أيضًا، قد اقترح عليها حلاً، فبما أنها مواظبة على القداديس في الكنيسة، وخدمتها، فلماذا لا تتقدم لطلب المعمودية، لتنضم إلي جسد الكنسية الأرثوذكسية وإيمانها القويم، بشكل رسمي؟ وهي ردت عليه، بأنها نالت معموديتها في طفولتها، وأن تعاليم الأناجيل، وقانون الإيمان الأرثوذكسي نفسه، يعترف بكنيسة واحدة ومعمودية واحدة، ثم أنها لا تتصور نفسها وهي في هذا السن أن تتعمد مثل الرضع، "يعني يا أبونا هقلع ملط وتغطسوني في جرن المعمودية، ولا إيه؟" انزعج الأب من صورة العري، التي تخيلتها مرية، ومن عنادها اللاهوتي، وأخبرها بأن الكنيسة لا تعترف بمعموديتها السابقة، ولا حتى زيجتها الكاثوليكية، قبل أن يطمئنها بأنها ستلبس طونية من المشمع، وأن تغطيس البالغين لا يتم في جرن عميق كما في حالة الأطفال، بل في حوض على مستوى الأرض، يرتفع فيه الماء لعدة سنتيمترات فقط، وأن عليها ألا تقلق فليس ما في العملية كلها ما يهين كرامتها، فإذا كانت راغبة في الاستمرار في المشاركة في طقوس الكنيسة فعليها أن تلتزم بقواعدها، هكذا الأمر بكل بساطة.

"أهو بسبب لسانك، اللي عايز قطعه ده، بقيت أهو ابن زنى، مبسوط طبعًا؟"

لم يكن أمامي الكثير من الوقت لمراضاتها، فاكتفيت بالاعتذار، وطلبت منها استكمال الحديث لاحقًا، وانطلقت لموعدي مع أبونا، فأنا كنت قد تأخرت عليه بالفعل.

"إتاخرت يا بشمهندس، مش عوايدك يعني."

كان الأب أنطونيوس واجمًا بسبب إخلالي بقواعد لقائنا. لكن مبرري تسبب في إحراج قليل له، مكنني من الإفلات من اللوم. فبعد إخباره بأن ما عطلني كان ذلك الحوار الغاضب مع والدتي، وأنني متزعج من أنه لم يتعامل مع فحوى حديثي معه بالسرية المفترضة، فإن أبونا بدا عليه الدهشة أكثر من الحرج. فهو لم يكن يتوقع أنني لم أسمع بالأمر إلى الآن، وظن أن والدتي كان قد أخبرتني حينها، أما فيما يخص خصوصية حديثنا، فإن أبونا لم يفرط فيها، وكل ما حدث أنه عرف مني معلومة، كان لا يمكن التغاضي عنها، وإلا أصبح مشاركًا بنفسه في كسر قوانين الكنيسة، في كل مرة تتقدم فيها والدتي للتناول. أما فيما يخص موضوع زيجة والديّ، فإن أبونا سخر من فكرة أن يأتي أبي وأمي بعد أن تجاوزا الستين، وهما ابن وابنة على "وش جواز"، للكنيسة للزواج مرة أخرى، "وإنت ابن حلال مصفي يا بشمهندس، خلينا نرجع لموضوعنا".

اكتفيت بتبرير أبونا، وانطلقت في رواية الحكاية التي كنت قد جهزتها خلال الأسبوع، واعتذرت للرجل المسن، عن أنني قد أطيل

عليه قليلاً. فلكي أبدأ في قصة والدي، على أن أعود لبولس مرة أخرى.

قرار الجد للعودة إلى أصوله وكنيسة آبائه لم يصمد كثيرًا بعد انتقاله إلى القاهرة، فهو قد اعتاد على حياته الجديدة في العاصمة، وعلى العمل في البودرة، أي في مصنع "السافو"، بسرعة لم يكن هو نفسه يتوقعها، وكان لا داعي للتمسك بقرارات كانت وليدة الغضب. أما عن الكنيسة الإنجيلية، فإنه لم يدخلها سوى مرة واحدة أثناء إقامته في القاهرة، وهي كانت المرة الأولى والأخيرة أيضًا. سمع بولس من أحد معارفه القدامى، بأن مدرسة الإرسالية الأمريكاني ستنظم حفلة غنائية للست، التي كان يحلم برؤيتها عيانًا ولو لمرة واحدة منذ انتقاله للعاصمة. وفي يوم الجمعة التالي ارتدى بدلته وأخرج الكسكتة الأفرنجي الذي كان توقف عن لبسها منذ مغادرة كوم أمبو، وتوجه إلى مقر الطائفة، وهناك قابل أحد الإداريين، وشرح له الغرض من زيارته، وأنه من أبناء الطائفة ويتمنى لو يحصل على تذكرة مجانية أو مخفضة لحفلة الست التي ستقيمها المدرسة الأمريكاني. عاد بولس بعدها، بلا شيء سوى شعور بالمهانة. فالإداري الذي كان في سن أبنائه، سخر منه، وهو يخبره، بأن اسمها لم يعد المدرسة الأمريكاني، فقد أصبحت الجامعة الأمريكية، ولم يعد لها علاقة بالطائفة منذ زمن طويل.

"يا أخينا يعني إنت هازز طولك وجاي الكنيسة، عشان حفلة غنا، ده كلام برضه؟"

في اليوم التالي، غاب بولس عن العمل، ربما من فرط الكمد. وأمضى معظم النهار في الصالة، كما أخبرني والدي الذي شهد هذه الواقعة. فالرجل الذي كان قد توقف عن قراءة الجرائد منذ وصوله للقاهرة، كان يجلس معظم أوقاته التي يقضيها في البيت منصتًا لجهاز الراديو الكبير المثبت على حائط الصالة. وبعد المغرب بقليل، بدأ يصدح الراديو بصوت الست وهي تغني "ثوار.. ثوار"، ومع أن بولس قد بدا عليه بعض الامتعاض، فإن توقير يقترب إلى حد القداسة، يكنه لأم كلثوم، كان قد منعه من اعتراض ما، كان يوشك على البوح به.

يقول والدي، بأن بولس زفر زفرة طويلة، وضرب الطاولة بيده بضع ضربات خفيفة، في تبرم حين سمع أم كلثوم تشدو جملة "ثوار مع البطل اللي جابه القدر". فيما تحول مزاجه بعدها إلى الانتشاء، حين أعادت الست مرتين، "من أرضنا هلّ الإيمان والدين، عيسى ومحمد ثورتين خالدين". لكن ما حدث بعدها لم يفهمه أحد، فحين ذهبت الأغنية إلى قرب نهايتها، وسمع بولس أم كلثوم تشدو: "تعالوا يا أجيال يا رمز الأمل، من بعد جيلنا واحملوا ما حمل"، قفز الجد من كرسيه، وجذب والدي، الذي كان ما زال طفلاً، بعنف، وضمه إلى صدره، وهو يعصره عصرًا بين ذراعيه. وعندما أعادت الست جملتها مرة أخرى، دفع بولس والدي بعيدًا عنه، وجرى إلى غرفته، صافعًا الباب خلفه بقسوة، وبعدها سمعه والدي وهو يجهش بالبكاء. وبعد دقائق، خرجت الجدة من الغرفة، التي هرولت إليها للاطمئنان على رجلها، وهي تشوح بيدها في وجه والدي الذي كان يبكي لبكاء بولس، "شوف

الراجل عقله خاب إزاي، بيعيط زي العيال عشان معرفش يروح حتة حفلة". وطبعًا هي أخطأت في تفسير الموقف تمامًا.

لم يذهب بولس إلى أي كنيسة بعد تلك الواقعة، ويقال إنه لم يستمع إلى الراديو مرة أخرى، أما والدي وأخوته فلم يكن هناك من يأخذهم إلى بيوت الرب، فبولس كان قد منع زوجته والأولاد من الذهاب إليها. لا يعرف والدي موريس الكثير عن كنيسته أو غيرها، ولطالما عايرته والدتي بأنه زي ولاد المسلمين، وهي كانت محقة تمامًا، فبين كل أصدقائه منذ طفولته إلى الجامعة، لم يكن هناك قبطيًا واحدًا. وإن كان ذلك الادعاء غير دقيق، فصديق الطفولة القبطي الوحيد الذي عرفه، "عم منير"، عندما توفى قبل عامين، فوجئ والدي بأن جنازته ستقام في الكنيسة، فهو ولأكثر من خمسين عامًا ظن أن منير مسلمًا، وهذه قصة حقيقية يا أبونا، وليست واحدة من قصص الوحدة الوطنية التي يعرضونها في التلفزيون، فعم منير، كان أيضًا زي ولاد المسلمين، وكان من الصعب تمييزه عنهم.

والحقيقة، أن طائفة والدي لم تكن غائبة عنه طوال الوقت، فغالبًا لا مهرب منها مهما حاولنا. فبعد تخرجه من مدرسة الألسن العليا، التي أصبحت كلية الألسن، كما كان يحلو له التأكيد دائمًا، فإن تفوقه وحصوله على المركز الثاني بين طلاب دفعته في قسم اللغة الإسبانية، ضمن له سريعًا، خطاب من القوى العاملة، بعد شهر واحد فقط من تخرجه. وجاء توزيعه إلى وزارة الإعلام، ولكن عندما توجه لتسلم

العمل اكتشف أن عليه العمل في إدارة لم يسمع عنها من قبل: "الرقابة على التليفونات".

كانت الوظيفة مليئة بالمزايا، فكان قد حصل في أسبوعه الأول، على كارنيه يتيح له ركوب المواصلات العامة مجانًا، وأحيانًا ما كان يبرزه في حالات مختلفة لتسهيل أمور أخرى، والحقيقة أنه ما زال محتفظًا به اليوم، وكان قد أبرزه بضع مرات مؤخرًا ولا زال يبدو تأثيره ساريًا في منحه هالة من الغموض ومسحة خفيفة من السلطة. أما عن الوظيفة نفسها، فكانت أمرًا بسيطًا جدًا، فكل ما كان عليه عمله، هو الاستماع إلى المكالمات الدولية، الواردة والصادرة من مصر، مع دول تتكلم الإسبانية، وكتابه تقارير عن محتواها، أو ترجمة ما يهم منها إلى العربية، وفي أحيان نادرة جدًا، كان عليه قطع الاتصال إذا احتوى مضمونه على ما لم يكن يجب أن يعرف، أو إن بدت صيغته مشفرة أو تستدعي بعض القلق.

استمرت الأمور على ما يرام لبضعة شهور، إلى أن وجد والدي نفسه يستمع إلى مكالمة للبابا شنودة مع رجل قبطي في بيونس أيرس، وكانت المكالمة عادية جدًا، وتتعلق بأمور عائلية تخص الرجل الذي ربما ينتسب بدرجة قرابة إلى البابا. يخبرني والدي بأنه شعر بتوتر شديد، بمجرد أن تعرف على هوية المتحدث، في بداية المكالمة، وإصابة هاجس ما، دفعه إلى قطع الاتصال، وعندما حاول الرجل إعادة الاتصال بالبابا، قطع والدي المكالمة مرة أخرى. وبعدها، ولمدة أسبوعين، كان موريس حائرًا في أمره، فلسبب ما ظن أن من واجبه أن يُنبِّه البابا إلى أن

مكالماته يتم التصنت عليها، مثل أي شخص آخر، فهو ربما لا يعرف، وقد يقول شيء في إحداها يتسبب له في الضرر. لكن كيف له أن يفعل ذلك، دون مخاطرة أن ينفضح أمره؟

في مساء يوم الأربعاء، توجه موريس إلى مبنى الكاتدرائية المرقسية، حيث اعتاد البابا إلقاء عظته الأسبوعية، وتلقي أسئلة جمهور الحضور، والتي يكتبونها في أوراق صغيرة يتم تجميعها بنهاية كل عظة. جلس موريس يومها، في الصفوف الأخيرة، وأنصت إلى العظة كلها، وبعدها غادر دون أن ينفذ ما كان قد عزم عليه. فهو كان مترددًا قليلاً، وخائفًا، والأهم أنه كان غير متأكد لماذا يعنيه الموضوع بالأساس، وإلى هذا الحد. احتاج الأمر أسبوعًا آخر، ففي يوم الأربعاء التالي، أخرج والدي الورقة التي أعدها بعناية في البيت، ووضعها في سلة الأسئلة، وغادر بعد ذلك مباشرة.

بعد عدة أيام من واقعة الكاتدرائية، استدعى موريس إلى مكتب المدير. وتم مواجهته بحقيقة أنه قد استمع لمكالمة للبابا، ولم يكتب تقريرًا عنها. وحينها برر والدي فعلته، بأنه لم يكن في المكالمة ما يستحق ذلك، فهي مكالمة عائلية تمامًا. لم تكن الحجة مقنعة بما يكفي، فالمدير يعرف أيضًا أنه قد قطع الاتصال مرتين، فإذا كانت المكالمة عادية فما الذي دفعه لإنهائها، وهنا تحجج موريس بأن الاتصال قُطِعَ بالفعل، لكن ليس بسببه، بل ربما لسبب خطأ فني في السنترال، وهي أمور تحدث بشكل يومي.

لم تكن تبعات انكشاف أمر المكالمة البابوية بالسوء الذي توقعه موريس، فالمدير أخبره بأنه عليه أن يعفي نفسه من الإنصات لمكالمات رجال الكنيسة، أو المتعلقة بأي من شؤونها، وأنه في حالة تحويل إحدى تلك المكالمات إليه، فعليه أن يطلب من أحد زملائه المسلمين أن يأخذ محله على جهاز الاستماع.

مر الأمر بسلام، ولم يصادف، بعدها، أن وقع من نصيبه الاستماع إلى أي من تلك المكالمات المحرمة عليه، بل وأن موريس كان ممتنًا بعض الشيء لاكتشافه أن الإدارة تتنصت هي أيضًا على تنصت العاملين فيها، وبدأ في تخيل سيناريوهات مضحكة عن سلاسل دائرية من المتنصتين الذين يستمعون إلى بعضهم بعضًا، ويحدث فيها أن يتنصت أحدهم على تنصت الآخر عليه، وهكذا. إلا أن ما أزعج والدي في تلك التخيلات، هو أن رسالته السرية التي أرسلها للبابا، غالبًا قد انكشف أمرها، وهي سبب الاستدعاء إلى مكتب المدير، بعد أكثر من شهر من المكالمة، وبعد أيام قليلة من حضوره وعظة الأربعاء. ربما كل الرسائل يتم قراءتها قبل أن تصل إلي يد البابا، فمن يدري! فاحتمال أن يكون هناك جهاز للرقابة على قصاصات الأسئلة الكنيسة، تابعًا لإدارة الرقابة على البريد، والتي تفض جميع الخطابات المرسلة إلى الخارج والواردة منه، وتقرأ محتواها بتمعن. وهناك فرضية أخرى، كان والدي مقتنعًا بها أشد الاقتناع، فربما البابا نفسه، هو من أبلغ عن محتوى الرسالة، خشية أن تكون مدسوسة عليه، من الأجهزة، لتوريطه

في شيء أو لمجرد اختباره أو تهديده. وفي كل الحالات، فموريس أدرك أنه ورط نفسه في أمور مخيفة، وبلا سبب مقنع.

استمرت الأمور على حالها في عمل موريس، حتى اندلاع الحرب كان قد سمع لأول مرة عن الثغرة، من مكالمة لدبلوماسي أرجنتيني في القاهرة مع شخص ما في ليما. وبعدها بأيام سمع عن وصول القوات الإسرائيلية إلى مشارف السويس، واحتمالية تقدمها إلى القاهرة، من مكالمة لمراسل صحفي إسباني، كان قد قطعها والدي قبل اكتمالها. حينها اجتمعت الإدارة مع العدد القليل من الموظفين الأقباط العاملين بها، وأعلمتهم بقرار نقلهم جميعًا، وبأن عليهم الاختيار بين الانتقال إلى الإذاعة، وكان هناك بث باللغة الإسبانية يناسب والدي، أو إلى واحدة من مؤسسات وزارة الثقافة.

رفض والدي الإذاعة لسبب واحد، فحكاية بولس مع الراديو قد تركت أثرًا عميقًا في نفسه، وحملته بنفور منه يقترب إلى حد التحريم. انتهى موريس في أحد مخازن الأرشيف في الهيئة التي تعرف فيها على والدتي بعد ذلك وتزوجها، والتي التحقت أنا بها بعدهما. وهناك قضى أكثر من ثلاثين عامًا، أمضاها في التدخين الشره واحتساء فناجين القهوة الرديئة واحدًا بعد آخر، فيما كان يقرأ جرائد المعارضة، بحثًا عن بعض من حقيقة يعرف أنها تُخفى عمدًا، ومحاولاً مغالبة خجل من مشاركته في عملية إخفائها تارة، والندم على محاولته الوحيدة لكشفها تارة أخرى.

طبعًا تظهر تلك الروايات يا أبونا وكأن لا علاقة لها بسؤالك عن حابي عن الكنيسة، لكنها في الحقيقة وثيقة الصلة. فوالدي استكمل حانه زي ولاد المسلمين، مع أنه عرف أنه لن يكون أو يقبل كواحد مهم أبدًا. وهو لم يذهب إلى الكنيسة سوى مرات نادرة بعد زيارتيه للكاتدرائية، والتي رسختا في نفسه قناعة بأن لا الكنيسة ولا رجالها يمكن أن يكونوا موضعًا لثقته، مثلهم مثل الراديو الذي كان يبث أغاني الانتصار فيما يعرف هو أن الإسرائيليين على مشارف القاهرة.

لم يمانع والدي أن يكون زفافه كاثوليكي، وربما حتى لم يلاحظ، كما أخبرتك المرة الماضية، وبعد ولادتي كان اختياره لمكان معموديتي، شأنًا عمليًا بحتًا، مرة أخرى. فالكنيسة الأرثوذكسية كانت هي الأقرب إلى البيت، وكان هذا مناسبًا له. وتتذكر والدتي بأنه غالبًا لم يفهم ما كانت تعنيه حين تناقشت معه في اختيار مكان معموديتي وطائفتها، واكتفى بالقول:

"هما على العموم كلهم نصابين زي بعض".

تلقف أبونا معلومة معموديتي الأرثوذكسية، ليختم لقاءنا بطريقة تلطف التوتر الذي بدأنا به، أكد الأب أنطونيوس لي، بأنه بغض النظر عن الطريقة التي قرر بها مكان معموديتي، واعتباطيتها، فإن ما يهم في الأمر أنني أرثوذكسي، على إيمان الآباء القويم. وأضاف أيضًا أنه بنفسه كان قد طلب من الكاتدرائية، نسخة من شهادة عمادي، وقد وصلته، واطلع عليها بالفعل. وبحركة مسرحية مفاجئة، أخرج أبونا، صورة

الشهادة الممهورة بختم البطريركية من درج مكتبه، ورفعها في وجهي وهو يبتسم. كانت الرسالة بسيطة وواضحة، فكل شيء مدون على الأرض كما في السماء، فلا شيء يقع خارج حدود البيروقراطية، حتى حلول الروح القدس في أجساد الأطفال الرضع عند تغطيسهم في جرن المعمودية، ومسحهم بزيت الميرون. وبالطبع، هو واحد من هؤلاء الذين يمتلكون حق الاطلاع على سجلات ذلك الأرشيف الإلهي، والتدوين فيها أيضًا.

اتفقنا على اللقاء في الأسبوع التالي في نفس الموعد ونفس المكان، وبعدها طلب مني أبونا أن أرسل سلاماته للوالدة.

٨

يبدو أن الحظ كان حليفنا هذه المرة، فقد وصلنا إلى المحطة، قبل إقلاع القطار المتجهه إلى القاهرة، بدقائق قليلة كانت كافية لقطع تذكرتين في كابينة النوم الوحيدة الشاغرة.

"حظكوا من السما يا أساتذة"

هذا ما قاله لنا موظف شباك التذاكر، وهو يناولنا التذكرتين، في عبوس ونبرة تنضح بحسد غير مبرر. ونحن صدقناه، فكلانا كان يتحين الفرصة، ليتصور أن كل ما يحدث هو مجرد سوء حظ وأن القدر غيّر وجهته فيما يخصنا.

بمجرد صعودنا للقطار، أعاد علاء محاولة انتزاع المزيد من التفاصيل، فهو ظن أنني أعرف أكثر مما أخبرته به. لكنني لم أكن أعرف حقًا أكثر مما قالته لي مريم، وحتى حين اتصلت بها مرة أخرى، تحت إلحاح منه، لم تزد كلمة واحدة مما قالته في السابق. كل ما تعرفه هي، وتعرفه إستر نفسها أنها قد تعرضت لاعتداء في البيت، وأنها الآن في المستشفى. ولا داعي للقلق، فهي في حالة جيدة. وإستر للأسف قد

تركت هاتفها في البيت فلم يكن الاتصال بها ممكنًا. كان لهذا أن يطمئن علاء قليلاً، لولا أنه أصر على الاتصال بالمستشفى، وكان هذا أيضًا بلا فائدة سوى إثارة المزيد من القلق، فموظفة الاستقبال التي ردت على التليفون، أنكرت بإصرار، مرة بعد مرة، أن لديهم نزيلة بهذا الاسم، أو أي نزلاء أجانب بالمرة.

الوجوم، ربما هي المرادفة الدقيقة لوصف ما حدث بعد تلك المكالمة، فعلى غير الصمت الذي يفضله علاء في الأغلب واعتدت عليه رغم أنه ما زال يزعجني، كان السكوت هذا المرة، عجزًا عن الكلام لا مجرد إمساك عنه. بل وغالبًا الوجوم هو إمساك عن الكلام بالرغم من الرغبة فيه.

"هو ده بقى الوجوم يا علاء، مش كده؟"

حاولت تخفيف تلك القبضة المحكمة من الصمت، وإن كنت فاقدًا أي أمل في أن سؤالي سيقنع علاء بالخروج منها. لكنني كنت مخطئًا، فعلاء بدا ممتنًا جدًا لسؤالي:

"إنت تعرف يا شريف، أن وجم يعني ضرب بقبضة اليد ولكز كمان، غريبة اللغة دي يا جدع".

قفز في رأسي، ما كانت تقوله الست الوالدة عندما تراني، واجمًا، "ما لك مضروب على بوزك"، كنت قد بدأت في الضحك من بلاغة تلك الصورة، وخيالها الدقيق والعنيف. ولسبب ما بدأ علاء هو الآخر في القهقهة، معي، بصوتٍ عالٍ، والضرب على فخذه، فيما تأرجح جزعه إلى الأمام والخلف من شدة الانتشاء.

كان الأمر مخجلاً فعلاً. فإستر كانت ترقد وحيدة في مستشفى، تنكر وجودها بالأساس، أو في مكان آخر مجهول. بينما أنا وعلاء، وبعد تلك القفشة اللغوية عن لكمات الصمت، التي لا تحمل الكثير من الكوميديا، قد ضحكنا لنصف ساعة كاملة. ذرفنا خلالها دموعًا كثيرة غطت وجهينا وبدأت قطراتها تتساقط على ملابسنا التي ابتلت حتى كان يمكننا عصرها. وأثرنا الكثير من الضجة في عربة القطار، للحد الذي دفع المحصل، الذي ربما ظن أننا مخموران، لطرق باب الكابينة، ومطالبتنا بقليل من الهدوء. كانت محاولاتنا لكتمان ضحكاتنا، بلا جدوى، فبعد ثوانٍ من الهدوء المكتوم، كانت تفلت الضحكات رغمًا عنا، مصحوبة بالمخاط الذي تطاير من أنوفنا في كل اتجاه. لم تنتهي تلك النوبة، سوى بعد أن أنهكت أجسادنا تمامًا، وربما بفعل خشيتنا من أن نكون قد فقدنا عقولنا تمامًا. نمت بعدها كما لم أنم منذ أسابيع، ويبدو أن علاء أيضًا لم يجد صعوبة في النوم بعمق طوال الرحلة، حتى وصولنا للقاهرة.

على رصيف المحطة، حاول علاء التملص من الذهاب معي إلى المستشفى، متحججًا بأنه من الآمن ألا نظهر مع بعض، وأن إستر ستحتاج بعض الوقت معي بمفردنا، وهو لا يريد أن يفسد خلوتنا تلك. وهو كان محقًا بالطبع، لكنني وجدت نفسي وقد تشبثت بيده التي مدها للسلام بكلتا يدي، وقد بدأت في التوسل إليه.

"متسبنيش لوحدي النهاردة، أرجوك".

شعر علاء بإحراج شديد، أمام تلك الهشاشة التي ظهرت علي فجأة، "انشف كده، ياض، فيه إيه!"، قبل أن يوافق على الذهاب

معي، بشرط واحد، هو أن ألتزم بما سيقوله، وأن كل شيء يجب أن يجري بحسب الأصول، وأنا فهمت ما يعنيه بذلك، ووافقت.

وعندما وصلنا إلى المستشفى الخاص الصغير، في حي المعادي، تقدم علاء بخطوات سريعة، حتى يسبقني إلى موظفة الاستقبال، والتي أجابت سؤاله عن إستر، بسؤال آخر: "مين فيكوا الأستاذ شريف؟" وبعدما أشار علاء تجاهي، اتصلت الموظفة في الحال، دون أن تنظر في وجهي، بمن كان متوقعًا وصولي، وفي انتظاره، "الأستاذ شريف في الرسيبشن".

لم يحتج الأمر سوى دقيقتين، قبل أن يظهر مدير المستشفى، وعلى وجهه ابتسامة عريضة، ليصحبنا إلى مكتبه، وهناك طمأننا على أن إستر بخير تمامًا، وأنه لا يوجد أي سبب لوجودها في المستشفى على الإطلاق، سوى التأكد من أنها لا تعاني من أعراض ما بعد الصدمة، وكذلك لأنها كانت خائفة من العودة للبيت بمفردها. أخرج الرجل، الذي لم تفارق الابتسامة وجهه، دفتر كبير الحجم من درج مكتبه، وناولني إياه، وهو يخبرني بأنه وبسبب طبيعة الواقعة التي دخلت إستر على أثرها المستشفى، فإن الإدارة ملزمة بحسب القانون، بتحرير محضر بالحالة، وتحويله إلى الشرطة. لكن نظرًا لأن الإصابات طفيفة جدًا، ولأن قسم الشرطة كان قد أبدى ترددًا في تحويل المحضر إليهم، ربما لتفادي الشوشرة، وخاصة لأنها أجنبية، فإنه سيترك الأمر لي لمناقشته مع إستر. وعلينا أن نقرر إن كنا راغبين في اتباع الإجراءات الرسمية، أم لا. لاحظت نظرة علاء الغاضبة تجاه ترددي، قبل أن أحسم الأمر، دون

مناقشة معها: "لا يا فندم، الإجراءات تمشي بالأصول، هنعمل محضر" مدا على المدير الرضا عن إجابتي، واصطحبنا إلي خارج المكتب، لنوجيهنا إلي غرفة إستر.

كادت إستر أن تقفز من السرير، التي كانت جالسة متربعة في منتصفه، وهي ممسكة بكتاب "موجز النحو والصرف"، عندما دخلت عليها أنا وعلاء. لكن ما منعها كان تلك الشهقة التي أطلقتها بمجرد رؤيتها. فلم تكن الإصابات طفيفة على الإطلاق، فوجهها كان متورمًا تمامًا ومشوها بالجروح والانتفاخات شديدة السواد التي كانت تغطيه، وبالكاد كان يمكنني تبين ملامحها. "حبوبي يلا نروح"، لم تنتظر إستر أي رد فعل مني، وبدأت في لملمة حاجياتها، وهي تتقافز بكل بهجة، فيما كنت أنا وعلاء نحملق فيها، بكل دهشة، صامتين.

غادرنا المستشفى، بعد أن أوصلنا مديرها إلى الباب، وهو يؤكد لنا بأن المحضر سيتم تحويله للشرطة، وأن القسم سيتصل بنا اليوم أو غدًا. أصرت إستر أن نعود إلى شقتها بالمترو، لأنه أوفر من التاكسي، وفي الطريق كانت تناقش علاء في بعض قواعد النحو، وتعرض عليه إجاباتها على التدريبات في الكتاب التي تمسكه في يدها، للتيقن من صحتها. فلديها بعد يومين امتحان في مدرسة الفرقان. وهو تريد أن تكون مستعدة تمامًا له. ظللت صامتًا طول الرحلة، بينما إستر تضحك على تعليقات علاء، الذي كان بين حين وآخر، يضرب كفًا بكف وهو يعيد قفشته الأثيرة عنها:

"اسم فاعل إيه دلوقتي بس. . . والله هربانة من فيلم كارتون!"

تغير الأمر عند دخولنا إلى الشقة، توجهت إستر، بعد أن وضعت حقيبتها الصغيرة جانب الباب، إلى طاولة الطعام، وتهاوت على أحد كراسيها، وبدأت في رواية ما حدث. كان وجهها خاليًا من أي تعبير وصوتها بارد تمامًا بشكل أصابني بقشعريرة من النفور، الذي لم أفهم مصدره أو مبرره. في حوالي الساعة الثالثة عصرًا، وبعد أن عادت إستر من مشوار صغير في الحي، سمعت طرقات على الباب. لم تكن قد خلعت حذائها، عندما تنبهت لتلك الخبطات الخفيفة، وكأن صاحبها كان في انتظار عودتها إلى الشقة، بفارغ الصبر. لم يكن هناك ما يثير الريبة، توجهت هي لتفتح الباب، وأخبرها الرجل متوسط القامة، ذو الشارب الكث، والذي بدت عليه بعض من علامات البلاهة كما تقول، بأنه من شركة الغاز وأنه يريد قراءة العداد. تقدم الرجل مباشرة إلى الصالة دون حاجة لإرشادات منها. وبعد أن أغلق الباب وراءه بهدوء، انحرف يمينًا إلى الطرقة التي تقود إلى المطبخ على يسارها، وكأنه يعرف وجهته تمامًا. مضت الأمور كالمعتاد، أحضرت إستر كرسيًا للرجل، حتى يقف عليه، ليتمكن من الوصول إلى العداد، المثبت على ارتفاع كبير، يكاد يلامس السقف.

لكن وبمجرد أن وضعت إستر الكرسي، قفز الرجل بحركة سريعة تجاه باب المطبخ، وهو بالطبع ما أصابها بقليل من القلق، لمدة ثوان قليلة، قبل أن يتحول توجسها إلى رعب. فحين حاولت إستر الخروج من المطبخ، تحرك الرجل ليسد طريقها إلى الخارج. حدث كل شيء بسرعة، كما تقول، وبعدها بدأت في الصراخ بأقصى ما استطاعت من عزم، وربما هذا كان خطأ كبيرًا. فالرجل، الذي ظهرت عليه علامات

الجزع أكثر منها، أطبق بيده اليسرى على فمها، وباليد الأخرى أمسك برقبتها ضاغطًا على حنجرتها، ليكتم صوتها. حاولت إستر أن تركله دون أن تنجح في تسديد أي من ضرباتها، وبرد فعل غريزي، عصرت أصابعه بين فكيها، قبل أن تخرج منه حشرجة مرعبة من الألم، وهو يحاول انتزاع يده من بين أسنانها. شعرت إستر وكأن فكها تحطم تمامًا، وأصابها طعم الدم في فمها بالغثيان، لم يكن دمها هي بل دم الرجل الذي أصابته بجروح قطعية في أصابعه.

خرجت الأمور عن السيطرة بعدها، فالرجل أطبق بيديه الاثنتين على رقبتها، وبدأ يخبط رأسها في الحائط بجنون مرة بعد مرة.

توقفت إستر، عندما وصلت إلى تلك النقطة في روايتها، وبدأت دموعها تنساب في صمت. اقترح علاء عليها أن تستريح الآن، وأن نكمل حديثنا في الغد، لكنها رفضت، وطلبت كوب ماء. كان صوتها بدأ في الارتعاش، وإن ظل استرسالها منتظمًا، وهي تخبرنا أنها لم تشعر بأي ألم من تلك الخبطات، لكن الارتجاجات العنيفة التي أصابت جمجمتها، جعلتها تصل إلى قناعة بأن أمر حياتها قد انتهى، وأنه لو هناك أي أمل في نجاتها فهو أن تفقد الوعي في الحال.

تجزم إستر بأنها فقدت الوعي عمدًا، وبقرار إرادي، وأنها أرخت كل عضلاتها، وتوقفت عن المقاومة، والأعجب أن جسدها الذي كانت ينتفض من فرط الأدرينالين، استسلم تمامًا، وذهب في سبات عميق. تصر أنها لم تنم، بل ذهبت في غيبوبة، فهي مع أن عينيها كانتا

مغلقتين، قد رأت الرجل وهو يمدد جسدها بهدوء على أرضية المطبخ، ويغسل يديه من الدم في الحوض، ويضمد أصابعه بأحد الفوط، وبعدها غادر في هدوء.

تدعي إستر بأنها ظلت واعية طول الوقت، وأنها كانت في مكان مظلم لساعات، قبل أن تتراءى لها جدتها، التي توفيت من بضع شهور، وهي متكئة على عكازها، لتوقظها بخبطتين منه على صدرها، وتطمئنها على أن كل شيء سيكون على ما يرام. ضحكت إستر فجأة، وظهر على وجهها بعض الاندهاش، وهي تخبرنا بأن العجيب في الأمر أن جدتها، في تلك الرؤيا، كانت تتحدث إليها بالعربية.

"تصدق هيلجا كانت بتتكلم معايا بالفصحى؟"

استعاد صوت إستر مرحها المعتاد، وإن كانت قد صدت محاولة مني لضمها ودفعتني برفق بعيدًا عنها. وبعدها استكملت رواياتها، فهي شعرت بوهن شديد حين استيقظت، لكن دون أي ألم على الإطلاق، وزحفت من المطبخ إلى باب الشقة، لتخرج الهاتف من حقيبتها، واتصلت بمريم، لأنها لم ترد أن تزعجني، فلم يكن هناك ما أستطيع فعله لها وأنا في أقصى الصعيد. بعدها نجحت إستر في أن تتكئ على إحدى يديها، لترفع جسدها قليلاً وتفتح مزلاج الباب باليد الأخرى، وزحفت إلى بسطة سلم العمارة، قبل أن تفقد الوعي مرة أخرى. لا تتذكر ما حدث بعد هذا، فقد استيقظت لتجد نفسها في المستشفى، والتي في الغالب قد قامت مريم بنقلها إليها.

حاولت إستر أن تهون الأمر علينا، فهي كما قالت كانت قد رأت الموت وجهًا لوجه، إن لم تكن ماتت بالفعل لبعض الوقت، وهي الآن قد عادت إلى الحياة، فليس هناك داعي للحزن، بل وربما ينبغي علينا الاحتفال. كانت هي قد فرغت من الكلام، قبل أن يلفت علاء نظرنا إلى أن هناك ورقتين بعشرين جنيهًا على المائدة، "الفلوس دي كانت هنا لما ده حصل؟"، لم ينتظر علاء إجابة على سؤاله، وفهمت أنا وإستر ما كان يعنيه، فالأمر لم يكن بدافع السرقة، فكل شيء كان في مكانه كما هو، بما فيه النقود. ولم يحتج علاء أن يقول أكثر من هذا، لتقفز في ذهني الأفكار التي داهمتني في الليلة السابقة بعد مكالمة مريم. فهل للاعتداء علاقة بقصة الجريدة والصورة، أم أن الأمر جريمة جنائية؟ أو لعل الرجل كان محصلاً في شركة الغاز حقًا، وأغراه أنها كانت وحدها في البيت، وطمع في ملامسة جنسية أو شيء من هذا القبيل، قبل أن تخرج الأمور عن مسارها الذي تصوره، وتنتهي بكارثة؟

قاطع علاء استغراقي: "يلا عشان هتبيتوا عندي الليلة دي". رفضت إستر الأمر في البداية، بإصرار أدهشني وأصابني بالغضب تجاه عدم اكتراثها إلى هذا الحد. فالشقة لم تعد مكانًا آمنًا، فما الذي يضمن ألا يعود هذا الرجل مرة أخرى، وماذا لو كان الأمر مدبرًا من الأمن فعلاً. لم تعر إستر اعتراضي أي اهتمام، وأصرت على أنها ترغب في المبيت في غرفتها وعلى سريرها. وحتى عندما أخبرتها أنني لن أبيت معها إذا أصرت على البقاء في الشقة، فهي لم تبدِ أي تردد على الإطلاق، وكأن شيئًا لم يحدث في اليوم السابق.

كاد الأمر أن يتحول إلى مشاجرة بيني وبينها، لولا أن علاء قد تدخل، ولم تنجح محاولاته العديدة لإقناعها بمغادرة الشقة، سوى بعد أن أخبرها أنه من الأفضل ترك مسرح الجريمة كما هو، حتى تستطيع الشرطة تجميع الأدلة الجنائية، كالبصمات وغيرها، وأنه كان من الأفضل ألا نحضر للشقة على الإطلاق لهذا السبب وحده. وافقت إستر في النهاية، ولكن على شرط واحد، هو أن نتوجه إلى القسم في الصباح التالي مباشرة لمتابعة المحضر، والإصرار على مصاحبة الشرطة لنا لمعاينة الشقة في وقتها، حتى تستطيع العودة للإقامة بها بأسرع وقت ممكن. تظاهرت بالموافقة، بعد أن غمزني علاء، فمن الواضح أن الصدمة قد أثرت عليها، وفي الغد ستكون قد استعادت بعض من رشدها.

كان خيار المبيت في شقة علاء موفقًا تمامًا، فزوجته والأولاد كانوا في بيت حميه ليلتها، والمكان بعيد تمامًا عن وسط المدينة. جهز لنا علاء الغرفة الكبيرة، وأخبرنا بأنه سينام في غرفة الأولاد، لكن إستر رفضت، وأصرت على أنها ستنام على سرير ابنته الصغير، وبعدها قالت لي إنها تحتاج أن تكون وحدها، وأنه من الأفضل لها لو أني قضيت الليلة في الصالة. تظاهرت بالاندهاش من طلبها، وكذلك بالموافقة عليه على مضض، مع أنني كنت أنا الآخر، ولسبب غير مفهوم، غير راغب في النوم بجوارها، أو ملامستها. فمنذ اللحظة التي رأيتها فيها في المستشفى خالجني شعور بالتقزز تجاهها. وما جعل الأمر أسوأ، هو أنني حاولت مقاومته. فما الذي ارتكبته هي، حتى يتملكني هذا الإحساس تجاه جسدها، وما الذي قصرت فيه أنا حتى يصيبني كل هذا الشعور بالذنب والدنس!

٩

تحسنت الأمور مع الوالدة منذ زيارتي الأخيرة لأبونا، فهو قد استدعاها بعدها إلى مكتبه لمرة ثانية، وطمأنها إلى أن الكنيسة قد وافقت على استمرارها في عملها التطوعي فيها، وإن كان حرمانها من طقس التناول لا زال ساريًا حتى تحسم هي أمرها بشأن معموديتها. وفيما يبدو أيضًا أن الرجل قد أشار لي ببعض المديح أمامها. وخلال الأسبوع الماضي، تلطفت الست مرية في حديثها معي، مكررة ثناءها على التزامي بلقاء أبونا الأسبوعي لشهر كامل، وإن كانت تلحق ذلك بنصائحها المعتادة عن التحفظ بشأن ما أقوله، وخاصة وأن الأمر لم يعد يتعلق بي فقط.

تعمدت هذه المرة، مغادرة المنزل أبكر من المرات السابقة، وهو ما فهمته الوالدة كتطييب لخاطرها، وهذه كانت نيتي فعلاً، لكنني أيضًا قد احتجت لبعض الوقت مع نفسي. كان الطريق من البيت إلى الكنيسة هذه المرة، مختلفًا قليلاً، فطوفان البشر المندفع من محطة المترو موجة بعد أخرى، والمتجه في الاتجاه المعاكس لمساري، أشعرني بقليل من الرهبة

هذه المرة، مع أنني كنت معتادًا عليه، ولم يكن له أن يلفت نظري في أي يوم آخر. فقد راودتني فكرة عجيبة، بأن تيار الخارجين من المحطة إلى شارع "الفريد" سيحملني بعيدًا في طريقه، وأنني لن أتمكن من الوصول إلى الكنيسة أبدًا. لكنها كانت مجرد فكرة عابرة، سرعان ما تغلبت عليها، فقد وجدت في التفرس في وجوه القادمين في طريقي، فردًا فردًا، وسيلة لتجاوز هلعي أمام تلك الكتلة البشرية، المتهادية نحوي كوحش له آلاف الرؤوس. كانت حيلة تقطيع تلك الرؤوس واحدًا بعد الآخر ناجحة في تخفيف جزعي، بعد أن أسبغت عليه بعض المنطق. فالقصص التي جهزتها لروايتها في لقائي بأبونا يومها، هي قصصي أنا، والتخلي عن الاختفاء خلف جمهرة الأجداد البعيدين، والآباء، والاختباء في ماضيهم، له أن يكون مقلقًا بالتأكيد، فبعد دقائق سأكون أمام أبونا، وحدي، فردًا، وعاريًا من قصص الآخرين.

"قبل ميعادك كمان يا بشمنهدس".

هون استقبال أبونا انطونيوس الحماسي، من تحفزي للمهمة الثقيلة التي ارتضيتها لنفسي. بدأ الرجل بتلخيص لما قد فهمه من لقاءتنا السابقة، وطلب مني التأكيد له على صحة ما وصل إليه حتى الآن. فأنا، كما فهم، وارث لتركة عائلتين كان ارتباطهما بالكنيسة مضطربًا بفعل تجارب مؤسفة للأجيال السابقة، وأقدار لا يد لي فيها بالضرورة، وهو ما تركني بعيدًا عن جسد الكنيسة، وفي حيرة من أمر انتمائي.

"مش بالظبط يا أبونا"، بدأت في توضيح الأمر للرجل المسن، بعد أن أكدت له أنه قد أصاب بعض الحقيقة. فأنا على عكس ما قد يظنه، كنت قد قضيت طفولتي ومراهقتي منغمسًا في الكنيسة والكتب المقدسة. فبسبب ذلك التشوش الذي وجدت نفسي فيه، مع زياراتي إلى الكنائس الأرثوذكسية تارة والكاثوليكية تارة أخرى، وتشكيك والدي الدائم في نزاهة رجال الدين ووصمه إياهم بالنصب، وكل تلك الحكايات العائلية عن التمرد والظلم على يدي السلطة أيًا كان شكلها، كانت قد دفعتني للبحث عن الحقيقة، بمفردي، والتشكك في كل مصادرها الجاهزة. وأنا كنت طفلاً نابغًا، كما يقول الجميع إلى اليوم، ولا أخفي عليك، أنني وجدت القداديس هنا في الكنيسة، مملة، ومكررة، ولم أفهم لماذا علينا الإنصات لتراتيل بلغة لا يتكلمها أحد أو يفهمها، ولذا امتنعت في سن مبكر عن الذهاب مع والدتي إلى الكنيسة، بعناد شديد. لكن ولأنني كنت قد تعلمت القراءة بسن الخامسة، وأتقنتها في العام التالي، فانتهيت من قراءة الكتاب المقدس بعهديه في سن التاسعة، وحفظت إصحاحات كاملة منه، كنت أتمتم بها لنفسي في كل ليلة، مقتنعًا بأن الرب سيقبلها مني بالرغم من عدم ذهابي إلى الكنيسة.

كنت راضيًا عن نفسي تمامًا، وإن كان قد أصابني بعض التشوش، بسبب حصص الدين المسيحي في المدرسة، وكتاب التربية الدينية الحكومي، والتي كانت تلقنا دروس الإيمان الأرثوذكسي القويم، وتخبرنا بأن مصدر الحقيقة الصحيح هو مجمع "نيقية" وحده. فمناهج وزارة التعليم كما تفترض معظم الوقت أن كل طلبتها مسلمين، فهي

نفترض أيضًا أن المسيحيين منهم، جميعهم قطعًا أرثوذكس. لكن قراءة الأسفار المقدسة، بنفسي، قد وضعت في قلبي قناعة بريئة بأن علاقتي بالله لا تحتاج وسيطًا أو سلطة ما للحكم عليها. حتمًا ستندهش، حين أخبرك أن لتلك القناعة أن تتغير، بفضل جارنا "ميدو".

فالولد الذي كان يكبرني بعام واحد، غير أنه قد دفعني دفعًا للاهتمام بأمور كانت لا أسمع عنها في البيت، وجندني لتشجيع ناديه الكروي، "الزمالك"، فهو بفضل حادثة عابرة قد دفعني لطريق الكنيسة أيضًا. ففي إحدى المرات، وعلى عتبة بيتنا، وبعد انتهائنا من لعب دور للشطرنج، كنت قد خسرته، أخرجت له لوحة بألوان "الفلوماستر" رسمتها، لفتاة أحلامي، في اليوم السابق. تأمل ميدو رسمتي قليلاً، مُعربًا عن إعجابه بها، قبل أن يضيف سؤالاً له صيغة التقرير:

"ودي مسيحية طبعًا؟".

كان سؤال صديق الطفولة مطمئنًا لسبب سيتضح بعد قليل، ودفعني لإجابته بسؤال:

"وعرفت منين؟"

جاءت إجابة ميدو مؤسسة على منطق بسيط، ففتاة أحلامي قطعًا ستكون مسيحية بأي حال، لأنني مسيحي. وبعيدًا عن هذا، فلأن الفتاة في الصورة شعرها أشقر، وعيناها زرقاوان فلا بد أنها مسيحية. طمأنتني الإجابة إلى أن ميدو لم يلحظ الشبه بين الصورة وبين أخته شيرين، حبي الأول، فتلوين شعرها باللون الأصفر وعيناها بالأزرق كان كفيلاً

بإخفاء هويتها، الذي تعمدته خوفًا من انكشاف أمري. لكن ما قاله لي ميدو حينها قد نبهني إلى أنه وإن كان لنا أن نكون أصدقاء، فإن غرامي الطفولي لشقيقته ليس ممكنًا.

كنت أعرف بشكل أو بآخر، أن علاقتي بالرب، ليست شأنًا خاصًا بي، فهناك أمور لتلك العلاقة أن تعقدها، منها الحب مثلاً، لكن ما كان حاسمًا في واقعة الصورة، هو إدراكي أن المسيحيين لهم شكل ما مختلف عن غيرهم، وأنه ببعض التدريب يمكنني تمييزهم، عبر النظر إلى ملامحهم. في اليوم التالي، نظرت في المرآة ولاحظت أنني أبيض فعلاً، أميل للشقرة، فميدو على حق، وملامحي تبدو كملامح الممثلين في الأفلام الأمريكية، وإن كان لون عيني ليس أزرق أو أخضر كما ينبغي، فإن والدتي أخبرتني أكثر من مرة، بتباه بأن لونهما عسلي، وفي الشمس، يكادا يتحولان للون الأخضر أو الرمادي. كانت خناقات والداي مع بعضهما البعض والتي تنتهي باتهامات والدتي لأبي بأنه زي ولاد المسلمين، تأكيدًا لي بأن هناك سمتًا ما يميزنا عنهم، ليس هو الشكل الخارجي فقط، بل أشياء أخرى ينبغي لي أن أتعلمها.

لا يصدقني الناس يا أبونا عندما أخبرهم، أنني بعد تلك الواقعة، وكنت ما زلت في سن التاسعة، قد بدأت في التجول في شوارع المنطقة، بحثًا عن كنيسة تناسبني، أجد فيها فتاة لأحلامي، وفرصة للانتماء لزمرة من يشبهونني أو من عليّ تعلم أن أكون على صورتهم. كانت المعجزة أقرب مما تصورت، فبعد أقل من أسبوع، وفي صباح أحد الأيام، قادتني قدماي إلى شارع لا يبعد عن شارعنا سوى أمتار قليلة،

وهناك سمعت صوت ترنيمات تصدح من السماء نفسها. وقفت على باب المبنى الصغير، الذي كان له هيئة منزل عادي، مترددًا في الدخول، إلى أن تصادف دخول إحدى السيدات إليه. سألتني عن اسمي الكامل، وبعدها دعتني لمصاحبتها. في الداخل، كان كل شيء كما ينبغي له أن يكون، كان الأطفال الجالسون في صفوف شديدة التنظيم، بينما تصدح حناجرهم بالترنيمة التي كنت قادرًا على فهمها، شقر وشعورهم ناعمة، ووجوههم تضج بالصحة. جلست وبدأت في تحريك شفتي متظاهرًا بأنني أعرف كلمات الترنيمة، فيما كانت عيناي مثبتة بدهشة طفولية على يدي عازف الإكسليفون في مقدمة القاعة.

لم تردني العلقة الساخنة التي نلتها على يدي والدي يومها، بسبب غيابي عن البيت لساعات، عن قراري الذي أعلنته بعد عودتي للبيت مباشرة، فأنا أصبحت إنجيليًا، زي جدو بولس. لم يكن الأمر يا أبونا، راجعًا لمجرد انبهاري بهيئة الأطفال المهندمة هناك، والتي كانت بالطبع أفضل من البؤس الذي كنت أراه على وجوه الأطفال في الكنائس الأخرى التي كانت تأخذني إليها أمي. ففي الكنيسة الإنجيلية الصغيرة، كانت العظات بلغة أفهمها، وبالفصحى التي كان وقعها على أذني سحريًا، مثل لغة نصوص الأسفار المقدسة، وكان هناك مكتبة كبيرة، انكببت على قراءة كتبها جميعًا، وانتهيت منها في عام واحد، وكذلك كان لديهم مسرح، وآلات موسيقية، وغيرها من الأشياء المغرية جدًا.

لم تكن أمي راضية عن قراري بالطبع، وإن كانت سعيدة بأنني على الأقل قد بدأت في المواظبة على الكنيسة، أي كنيسة، فهي كانت

تخشى أن أنتهي مثل والدي. أما عن أبي، ومع أن الأمور الروحية لم تعنه كثيرًا، بل وكان يعايرني بمواظبتي على الكنيسة أحيانًا كثيرة، "يا بني ذاكر لك كلمتين، بدل الكلام الفاضي ده"، إلا أنه كان لا يخفي غبطته حين يراني أقرأ كتابًا عن لوثر أو كلفن، أو غيرهم من رواد الإصلاح البروتستانتي.

فوالدي، الذي كان لا يخفي اشمئزازًا من كل ما هو شرقي، حرَّم دخول كتب عربية إلى البيت، سوى كتب التاريخ والأدب الغربية المترجمة. وفي المرة التي ضبطتني فيها أقرأ رواية عربية، قام بتمزيقها وأحضر لي في اليوم التالي رواية لكاتب فرنسي، اسمها "تحت ظلال الزيزفون"، أو شيء من هذا القبيل، ومع أنني قد حرت في شأن الزيزفون، وهيئته، إلا أن الأمر كان مرضيًا تمامًا، فنحن نشبه الخواجات، وننتمي معهم لطائفة واحدة، والأسماء الأجنبية لأبطال الرواية كانت هي نفس أسماء أطفال الكنيسة الإنجيلية.

قاطعني أبونا، عند تلك النقطة، ولم يبدو على وجهه أنه كان سعيدًا بما وصلت إليه في حكايتي:

"يعني أنت بروتستانت يا شريف؟ "

لا يا أبونا، فلكي أكون صادقًا معك تمامًا، ينبغي أن أقر لك بأنني لم أشعر بانتمائي بشكل كامل لكنيستي الجديدة. فمع أنني كنت مفتونًا بكل تلك القصص عن أبطال عصر الإصلاح، ووقوفهم في وجه الباباوات والسلطات الأرضية التي ورائهم، إلا أن كنيستنا كانت صغيرة

جدًا، ويحضرها عدد قليل من العائلات التي ترتبط بعضها ببعض، بأواصر القرابة أو النسب، وتاريخ مشترك طويل، وأنا كنت غريبًا عن كل هذا. فالأطفال الآخرون كانوا يحضرون الأعياد والاحتفالات الموسمية في الكنيسة مع أسرهم، فيما كنت هناك دائمًا بمفردي، وكما تعلم فإن معموديتي أرثوذكسية، وهو ما جعل انتمائي للكنيسة الإنجيلية شرفيًا، أو على الأقل في مرتبة أدنى من الأطفال الآخرين.

وبدخولي إلى المدرسة الثانوية، كان تمرد الطفولة الذي فرغته في المواظبة على حضور الكنيسة، بالعند في أبي وعلى غير رغبة أمي، غير كافٍ لإشباع طاقات المراهقة الجانحة. فلم تجد أسئلتي الكثيرة التي كنت أعيدها في الكنيسة، إجابات مقنعة، أما الأطفال الذي بلغوا سن المراهقة معي، فلم يعودوا خواجات بشكل كافٍ في عيني كما كانوا.

قضيت الثلاث أعوام اللاحقة في الانتقال من طائفة إلى أخرى، بدأت بالكنيسة الرسولية لأنها الأقرب، وبعد شهرين، كنت قد شعرت بالملل منها، وقليل من الشفقة على المترددين عليها، ممن ينتمي معظمهم إلى أصول صعيدية فقيرة. انتقلت بعدها إلى كنيسة "الأخوة البلميس"، وافتتنت بنبذها لفكرة التراتبية، وبأن الجميع ومن ضمنهم أنا، كان يمكن لهم الصعود على المنبر والوعظ متى شاؤوا. ولكنني طردت منها بطريقة مهينة بعد أن تفوهت بأشياء على المنبر، تخالف تعاليم الإنجيل، كما أخبروني ساعتها. سرعان ما قبلتني كنيسة "الإخوة المرحبين"، والتي كانت أقل تزمتًا، لكنها لم تكن تسمح بعزف الموسيقى ولا حتى استخدام الميكروفون، وكانت هذه مغالاة لم أحتملها. مررت

على كنيسة الإصلاح، ونهضة القداسة، والطائفة الخمسينية، والمعمدانية، والإنجليكانية والأدفنتست. وهذه كلها طوائف بروتستانتية، ربما لم تسمع بها يا أبونا، قط، كما لا يسمع عنها معظم الأقباط، وربما توجد واحدة من كنائسها أو أكثر بالقرب من بيتك، وأنت لا تدري، هم في كل مكان. وأنا حقًا لا أعرف، على وجه الدقة، كيف جاءت كل تلك الطوائف إلى شرق القاهرة، وإلى كل مكان آخر، ومتى ظهرت، فلا أحد يعرف في الحقيقة، أو أن الجميع قد نسي عمدًا. فتذكر أنها جاءت مع أجانب إرساليات الأمريكان، وفي ملاجئهم، منذ زمن بعيد، لم يعد أمرًا مفيدًا أو مشرفًا كما في الماضي. الآن يكتفى الجميع بالقول إنهم جاؤوا من الصعيد.

وفي الحقيقة لم يكن هناك ما يغري في معظم تلك الطوائف وكنائسها، سوى أن المرور عليها، والاطلاع على تعاليمها، ومقارنتها بغيرها، ومجادلتي لقساوستها، كانت رياضة عقلية مسلية، مارستها، وأنا أقفز بين طائفة وأخرى، فيما تطاردني سمعة كانت قد وجدت طريقها إلى كل كنيسة أقصدها، بأنني شخص جالب للمشاكل، وكثير الجدل. واتهمت في النهاية بأنني ملحد، وهو ما أوصد في وجهي كل أبواب الكنائس بعدها.

قاطعني أبونا مرة أخرى، وبصورة أكثر حدة من سابقتها، فهو كما يبدو قد فاض به الكيل، من مراوغاتي الطويلة:

"يعني إنت ألحدت في الآخر ولا إيه، يا ابني؟"

لا يا أبونا أبدًا، فهذا قرار خطير، لم أكن أملك القدر الكافي من الشجاعة للإقدام عليه. الأمر أنه وفي الأسبوع الأول من دخولي الجامعة، حدث ما أنقذني من حيرتي في شأن انتمائي، وحسم رحلتي الطويلة من البحث. ففي محاضرة مملة للهندسة الوصفية، وبينما كنت أهمس لزميل جالس بجانبي بواحدة من قصصي الطويلة، فأنا أحب الكلام كما لاحظت يا أبونا، التفت أستاذنا، والذي كان معروف بغلاظة طبعه، وصرخ وهو يشير بأصبعه تجاهي، "إنت يا اللي بترغي، قوم أطلع بره". لم أكن متيقنًا إن كنت أنا المعني بالكلام، فالمدرج كان كبيرًا، وبه على الأقل خمسمئة طالب، لكن وبعدما كرر الأستاذ جملته وإشاراته بأصبعه تجاهي، وقفت متسائلاً إن كنت أنا المقصود.

"أيوه.. إنت يا أسود".

أفلتت قهقهة عالية من أبونا، رغمًا عنه، واعتذر عنها في الحال.

نعم يا أبونا، عندك حق، هذه كانت الصدمة التي أدركت بعدها بأنني لست أبيض. وكأن غمامة كانت على عيني كل تلك السنين قد رفعت فجأة، فأنا أسمر جدًا كما ترى، وورثت عن جدي جعفر ملامحه الأفريقية، عينان تبظان من حدقتيهما، وأنف كبير مفلطح وشفتان مكتنزتان، أنا لا أشبه الخواجات في شيء. حتى كل أطفال الكنيسة الإنجيلية، حين بدأت استدعاء صورهم في مخيلتي لم يكن أحد منهم أشقر كما كنت أتخيل. إلى هذا الحد يمكن يا أبونا للتنميطات الرائجة أن تخدعنا، وتضلل حواسنا، حتى في معرفتنا بملامح وجوهنا؟ ونظل نجهل

أبسط الأشياء عن أنفسنا، والظاهر منها على الأخص، حتى يصدمنا أحدهم بحقيقتها، على نحو عابر وعلى وجه المصادفة غير أكيدة الحدوث؟

لا أخفي عليك يا أبونا أنني قد تحاشيت النظر إلى المرآة بعدها، لوقت طويل، وأنني جربت كريمات لتفتيح البشرة، كان مفعولها متواضعًا جدًا، فغير الالتهابات التي سببتها، فإنها لم تجدِ نفعًا مع ملامحي المكتنزة، ولا في تخفيف حيرتي: فإما هيئتي هذه لا تشبه الأقباط، أو أنهم ببساطة سمر البشرة كغيرهم. وإن كانت هذه الحقيقة، فلماذا يطلقون علينا لقب الخواجات؟ لكن وبعيدًا عن تلك الحيرة التي لم تستمر كثيرًا، فبفضل واقعة "يا أسود"، كنت قد تعرفت على ياسر. فبعد يومين، وبينما كنت في طريقي للخروج من كافتيريا الكلية، استوقفني أحد الطلبة، كان طويلاً، وأبيض حقًا، وعلى وجهة ابتسامه عريضة، "مش أنت برضه الأسود". لم تثر الطريقة التي اختارها ياسر للتعرف بي، سوى نفوري بالطبع، لكن ما لفت انتباهي أنه كان يحمل في يده كتاب، له عنوان وجدته جذابًا جدًا، " مدينة الملائكة"، وكان رواية مترجمة.

ياسر، مسلم كما يمكن أن تتبين من اسمه بسهولة يا أبونا، ولكنه كان حائرًا في شأن انتمائه مثلي، ويقرأ روايات وكتب مترجمة كالتي أقرؤها، وهذا لم يكن شيئًا رائجًا بين زملائنا كما لك أن تتخيل. وسرعان ما أصبح لنا جماعتنا الصغيرة في الكلية، اثنان من الأقباط واثنان من المسلمين، جميعنا على نفس الشاكلة، كنا نتبادل الكتب بعضنا مع بعض، ونتشارك في رفضنا لكثير مما يجري حولنا، والسخرية

منه، وفي ميلنا لتجريب كل شيء، يمكن لنا مصادفته. وكان بسبب تلك الأمور اكتسبت جماعتنا اسم للشهرة عرفنا به، الطلبة الآخرين، "شلة الخواجات"، و لم تكن تلك الكنية من باب المديح بالطبع، بل سخرية مما حسبه من حولنا، غرابة أطوارنا. وكان هذا مرضيًا لي جدًا كما يمكن لك أن تتصور، فأخيرًا أصبح هناك ما أستطيع أن أنتمي إليه، أي لتلك الجماعة الصغيرة، التي يجمعها عدم انتمائها لشيء، وبالطبع يا أبونا، لعلك تجد في ذلك مفارقة مضحكة.

كانت الساعة المخصصة للقائنا، قد مرت، حين قاطعني أبونا أنطونيوس، في عجلة، معتذرًا بأن عليه الانطلاق لزيارة منزلية لإحدى الأسر، وأضاف بنبرة وشت بنفاد صبره وضيقه من تفلسفي المحمل بالكثير من الكليشيهات، أنه متشوق لسماع بقية القصة، في لقائنا القادم، "نفس الميعاد، يا بشمنهدس، ربنا يباركك".

١٠

لم أنم في تلك الليلة التي سبقت ذهابنا إلى القسم، لم يكن أرقي بفعل الخوف، وإن كنت خائفًا فعلاً، ولا داعي لإنكار تلك الحقيقة. لكن الخوف في النهاية، خصمًا نزيهًا، يهجم من الأمام، ويصرخ في وجوهنا بعلو صوته، منبهًا إيانا، أنا الخطر، فإما الهرب أو المواجهة. لكن القلق، الذي يخلط الناس، عن سوء فهم، بينه وبين الخوف، أو يظنوه جرعة مخففة منه في أفضل الأحوال، فأنا ولطول خبرتي به، تعلمت تمييز الخيط الرفيع بينه وبين الخوف، غريزة البقاء وفضلها علينا. فالقلق، ذلك الخوف المؤجل، مما لا نعرفه، هو وقع تلك الخطوات التي نسمعها تتبعنا، ونلتفت فلا نرى شيئًا، خوف دون خطر، يمكن التصدي له، والتحديق في وجهه، وتبين ملامحه.

أنا أعرف أني شخص قلوق إلى حد الهوس، وإن كان قلقي ينقلب تبلدًا، واستسلامًا أمام المخاطر الحقيقية حينما تأتي بالفعل، وهو ما يزعج من حولي في معظم الأحيان. لكنني لا ألوم نفسي بخصوص الأمر، فهناك أسباب تبرره، وجميعها لا يد لي فيها بالطبع. بدأ الأمر،

في تلك الليلة التي حبستني فيها والدتي معها داخل غرفة النوم، بعد أن أغلقت الشبابيك وترابيس الأبواب وأقفالها، وسمعتها تهمس في التليفون إلى خالتي، بصوت مرتعش: "الجماعات بتقتل المسيحيين، وحرقوا كنيسة عين شمس". كان تظاهر والدتي بالهدوء، كافيًا لطمأنينتي، أنا ابن الستة أعوام. ومع أن الساعة كانت لا زالت السابعة مساء، فهي قد أطفأت الأضواء، وطلبت مني أن أنام. احتضنتني متكورة حولي في وضع الجنين، وتظاهرت هي بالنوم، قبل أن تنعس بعدها بقليل. أما أنا فما منع نومي لم يكن الأرق، بل الإثارة، فبعد دقائق من إطفاء الأضواء، انسللت من حضنها، ونزلت تحت السرير، متظاهرًا بالاختباء، وهي لعبة أمضيت في ممارستها الأيام الثلاثة التالية من حظر التجوال التي فرضته الشرطة على المنطقة. كان للأرق أن يأتي بعد خروجنا من البيت، فقد مررنا على الكنيسة ورأيتها محترقة، وكان هذا أمرًا كفيلاً بإزعاجي بالطبع، لكنني لم أعره الكثير من التفكير. عرفت في مدرسة الأحد في الأسبوع التالي، أن نوسة لن تكون معنا بعد الآن، هي راحت عند بابا يسوع، ولسبب لم يكشفه أحد لنا، حتى أخبرنا أحد صبيان الكنيسة الأكبر سنًا بأنها ماتت محروقة. لم أعرف قط إن كان لحرق الكنيسة علاقة بغياب نوسة، أو إن كان لموتها صلة بما قالته والدتي لخالتي في التليفون في تلك الليلة. وهذا هو القلق، الذى عشت معه من ساعتها، نفس القلق الذي أرقني في الليلة السابقة للذهاب إلى القسم. فنحن لا نعرف أن كان لقصة الصورة والجريدة، أي علاقة بالاعتداء التي تعرضت له إستر، أو إن كان لأي الأمرين بالأساس أي دلالة

تستدعي الحذر. وبالطبع لم يمكننا الجزم أيضًا إن كان ذهابنا للقسم سيكون له أي جدوى، أم أننا قد قررنا الدخول إلى المصيدة بأرجلنا.

في الصباح الباكر، انضم إليّ في غرفة المعيشة، كلا من علاء وإستر، واللذان بدا عليهما بعض علامات الإرهاق، فربما لم يناما بما يكفي هما أيضًا. حاولت لمرة أخيرة أن أثني إستر عن موضوع الذهاب إلى القسم، وأخبرتها بأنه من الأفضل لها أن تتنقل من الشقة، وأن ننسى الأمر، وكأنه لم يحدث. استمعت لي إستر في صمت، وعلى وجهها نظرة تنضح بالاشمئزاز والشفقة، وكانت الشفقة هي الأكثر مهانة لي. وبعد أن توقفت عن الحديث بفعل تلك النظرة، أخبرتني هي بهدوء بأنها عازمة على الذهاب بأي حال، وأنها تتفهم مخاوفي، ولذا لن تشعر بالغضب إن قررت أن أتركها تذهب وحدها. حسم علاء المناقشة، فهو قد وزن الأمور في رأسه أثناء الليل، ووجد أنه من الأفضل أن يذهب شخص ثالث معنا، وهو للأسف ليس الشخص المناسب لتلك المهمة، ولذلك فإنه قام بالاتصال بياسر، فهو يتمتع ببعض العلاقات المفيدة، والتي ربما لها أن تضمن معاملتنا بشكل جيد وتسهيل الأمور. وياسر قد وافق بالفعل، وهو في طريقه إلينا، لتوصيلنا إلى القسم.

والحقيقة أن حضور ياسر كان مفيدًا جدًا، وإن بدا عليه بعض الضيق من توريطنا له في كل هذا. فهو قد لفت نظرنا لأمرين لم يخطرا لنا، فعلاقتي بإستر ستكون محل تساؤل في القسم، وعلينا أن نكون جاهزين بتفسير لها لا يثير المشاكل، ونحن وافقنا في الحال على اقتراحه بالقول بإننا مخطوبين. أما الأمر الآخر، والذي شدد عليه، وهو مبتسم،

أن على إستر ألا تذكر شيء عن صلتها بالمنظمة الحقوقية التي تعمل بها، فحتى وإن كان عملها مقتصر على اللاجئين، فلفظة "حقوق" تثير حفيظة المؤسسات الرسمية، وخاصة وهي أجنبية. وافقت إستر بعد قليل من التململ، على القول بأنها في القاهرة لدراسة العربية، بعد أن أقنعها ياسر بأنها كذبة بيضاء، وربما ليست كذبة على الإطلاق، بل اكتفاء منها بقول نصف الحقيقة. وفي القسم، كان للكارت الذي أخرجه ياسر من جيبه مفعول السحر، فقد قادنا مباشرة إلى غرفة رئيس المباحث، الذي بدوره، قد ظهرت عليه علامات الاهتمام، بمجرد أن نظر فيه، وتبعها بسؤال لياسر، "حضرتك من طرف اللواء فلان؟"، وأنا هنا أستعيض عن اسمه بـ"فلان" لا لشيء سوى لأنني لا أذكره الآن، لكن ما أذكره بوضوح أنه كان لواء بمديرية أمن القاهرة، ويرتبط بعلاقة نسب بعائلة زوجة ياسر.

كان الضابط نبيل، الوسيم كنجوم الأفلام، دمثًا جدًا إلى حد أصابني ببعض من عدم الارتياح. فهو أصر على أن نشرب شيئًا، ونحن وافقنا بامتنان، فأنا كنت في حاجة لبعض القهوة، لأفيق. والمضحك أن إستر قد طلبت ليمون، مسببة إحراجًا لي ولياسر، الذي مازحها قائلاً: "إحنا مش في كازينو على النيل يا إستر". وقد جاءها الليمون فعلاً، ومضروب في الخلاط بقشره، وبسكر بره، كما طلبت. أكد لنا الضابط بعد أن فرغنا من مشروباتنا، بأن بلاغ المستشفى قد وصلهم ليلة أمس، وأنه كان على وشك البدء في اتباع الإجراءات اللازمة، قبل وصولنا، واعتذر عن التأخر في الاتصال بنا، فهو لم ينم منذ ليلة أمس، "والله مطبق من نبطشية امبارح".

كان أكثر ما أدهشني، هو حرص ضابطنا السينمائي على توجيه أسئلته إلى إستر مباشرة، وفي كل مرة كان يعتذر لي: "ما تأخذنيش يا بشمهندس، هي المجني عليها، ولازم أسمع منها". وهذا لا يحدث عادة عندما أكون مع إستر، فالجميع، حتى لو كان الأمر يتعلق بها هي، كان بتعمد توجيه الحديث إلي، بما أنني الرجل، وابن البلد. المهم، احتاجت كتابة المحضر حوالي نصف ساعة، وكان من الممكن لها أن تأخذ أقل من هذا لولا أن إستر تعثرت في وصف ملامح الجاني وهيئته، أمام إصرار الضابط على الحصول على المزيد من التفاصيل، أكثر من كونه متوسط البنية وله شارب. ولم ينجح في النهاية، للوصول إلي أكثر من هذا، وصرفنا بعدها الضابط من القسم، على وعد بأن يلحق بنا أحد رجاله لمعاينة الشقة، في خلال ساعتين على الأكثر.

في طريق العودة إلى الشقة، وبعد أن ركبنا سيارة ياسر الذي أصر على توصيلنا، بدأت إستر بالسخرية من جبني، وهي تفرك عينيها بيديها الاثنتين متظاهرة بالبكاء كالأطفال، "يا ماما، أنا خايف من القسم". لم يثر الأمر غيظي، فكنت راضيًا تمامًا عن الطريقة الذي سارت بها الأمور، وأضحكتني النبرة الغليظة التي تصنعتها إستر، وهي تقلد طريقتي في الحديث، لكن لم يكن لضحكنا أن يستمر طويلاً.

ودعنا ياسر على عجل بعد أن أعاد تلقين إستر حكمته عن قول نصف الحقيقة، وضرورتها أحيانًا كثيرة. وبعدها صعدت مع إستر إلى شقتها، وكان كلانا حريصًا على ألا نتلامس، ولو على سبيل الخطأ، ففي المصعد تراجعت إستر بعيدًا عني خطوتين، حتى التصقت بجدار

المصعد، ونظر كل منا إلى الجهة الأخرى، تفاديًا لتلاقي أعيننا. وكان هذا مريحًا لي في الحقيقة ولم يسبب لكلانا أي توتر، مع أنني لم أجد تفسيرًا لذلك الشعور. كان تحاشي الحديث عند دخولنا إلى الشقة أمرًا صعبًا، وربما لذلك توجهت إستر في الحال إلى التليفون، واتصلت بوالدها في برلين. كانت المكالمة طويلة، وتخللها الكثير من الصمت، وأنا لم أفهم فحواها، فلغتي الألمانية شديدة التواضع. لكن لم يكن صعبًا أن أحزر ما يجري، فلعل إستر كانت تخبر والدها بأمر الحادثة التي تعرضت لها، لكن الأمر بدا على غير ذلك تمامًا، فهي كانت منصتة معظم الوقت، وظهر لي حين تتكلم وكأنها تحاول إقناع والدها بشيء ما، أو تبغي التخفيف عنه بخصوص أمر يؤلمه.

كنت متحسبًا لتلك المكالمة، فكان لا بد لها أن تقع بالتأكيد، لكن كيف سينظر لي أهل إستر بعد ما حدث لها؟ فأنا قد تحسنت علاقتي بوالدها بعد الرحلة المشؤومة لبرلين، فقد طلب الحديث معي على الهاتف، بإلحاح، بعد رجوعنا إلى القاهرة. وبعد رفضي عدة مرات، تحادثنا بعد ضغط من إستر علي، واعتذر هو عن كل ما بدر منه تجاهي. بل ووصل الأمر أنه أصبح يشير إليّ في حديثه مع ابنته بكلمة ألمانية معناها "رجلك"، وهي لا تستخدم إلا في حالة المتزوجين، أو من في علاقة طويلة، وكان وقع اللفظة على أذني فخمًا بما يكفي لإرضائي. لكن أي رجل هذا الذي يعجز عن حماية امرأته؟ وحتى لو نحيت أمر تلك الرجولة، وذكوريتها جانبًا، فإستر في النهاية غريبة هنا، ضيفة علينا، وفي بلدي أنا، وحمايتها واجبي على هذا الأساس وحده فقط.

الأكثر إيلامًا في كل هذا، لم يكن عجزي عن منع ما وقع لها، وهو شيء لا ينبغي أن ألوم نفسي عليه بالطبع، بل اكتشافي أنني هنا غير قادر على حماية نفسي حتى، ومن أي شيء، فما بالك بالآخرين ممن ارتبطوا بي. وربما كان هذا دافع نفوري المفاجئ من إستر، فبسببها كان عليّ الوقوف أمام تلك الحقيقة الأكيدة، ومواجهة عجزي أمامها.

انتشلتني إستر من تفكيري، بمجرد أن انتهت من مكالمتها. فهي لم تخبر والدها بأي شيء كما ظننت، ولا تنوي أن تفعل هذا، فلا ضرورة لإفزاع أسرتها، وما حدث قد حدث. ولو عليها أن تخبرهم في يومًا ما، فمن الأفضل أن تفعل هذا وجهًا لوجه، لا عبر الهاتف.

أما المكالمة الطويلة، فتتعلق بوالدها. فبعد سقوط سور برلين، عملت حكومة ألمانيا الموحدة على تجميع قصاصات ملفات جهاز الأمن السري، "الشتازي"، في ألمانيا الشرقية. فالعاملون هناك، مزقوا مستندات الجهاز، بغية تدمير كل الأدلة ضدهم، حين اتضح أن كل شيء على وشك الانهيار. احتاج الأمر أكثر من عقد من العمل، لمسح ملايين القصاصات الممزقة وتجميع أجزاءها مع بعضها ببعض، وأعلنت بعدها الحكومة عن أن من حق المواطنين أن يتقدموا بطلب للحصول على نسخة عن ملفاتهم، أو على الأقل لمعرفة إن كان لهم ملف أم لا. وقد تقدمت والدة إستر بطلب، وظهر أن لها ملفًا بالفعل، وقبل عام استلمت نسخة منه. لم يكن الأمر هينًا، فالوالدة اكتشفت أن صديقة عمرها، كانت تتجسس عليها وعلى أصدقاء آخرين، وأن زميل في العمل كان يكتب تقاريرًا دورية في أعضاء هيئة التدريس في الجامعة التي

كانت تعمل فيها، وكان الأفدح هو أن أختها الوحيدة قد قدمت وشاية فيها إلى "الشتازي". كانت الوالدة قد وجدت نصها، مصحوبًا بتقرير لأحد أفراد الجهاز تشير مقدمته إلي أن الأخت هي من قصدت الجهاز طوعًا، وبمبادرة منها، وهو ما دفع كاتب التقرير لختامه بتشككه في أن الأمر ربما يكون كيديًا، وبدافع خصومة عائلية لا أكثر. لا يصعب تصور تبعات ما حدث بعد اطلاع والدة إستر على الملف، لا عليها فقط بل وعلى كل من تعرفهم.

أما الوالد والذي تلكأ في تقديم الطلب بضع شهور، فقد وصله، في بداية العام، خطاب يعلمه بأن له ملف هو الآخر. ومن وقتها، لم يهدأ بال الرجل، فهو قد تيقن، مما حدث لزوجته بأن الحقيقة مؤلمة، ومدمرة أيضًا، وأن الجهل بها ربما يكون أفضل حالاً. ولذا اخترع البشر الزيف وصنوف الأكاذيب، هربًا من شراسة الحقيقة وتفاديًا لشرورها. لكن الفضول، تلك الغريزة الطفولية للمعرفة واكتشاف المجهول، حتى لو كان ماضيًا، ظلت تؤرقه في إلحاحها عليه. ظل الرجل ممزقًا بين رغبته في الاطلاع على ملفه، وبين تفادي قسوة ما سيكتشفه، بضعة أسابيع، حتى توصل إلى قرار أخير، وهو ما كان يبلغ إستر به في مكالمته تلك.

قاطعتنا طرقات عنيفة على باب الشقة، قبل أن تكمل إستر حكايتها وتخبرني بقرار والدها. فقد وصل الضابط الذي وعدنا رئيس المباحث بأنه سيلحق بنا إلى الشقة، لمعاينتها واستكمال المحضر، وكان في صحبته أيضًا، شرطي آخر، بدا من هيئة لباسه المتواضعة، والطريقة

التي تعامل بها الضابط معه، بأنه معاون شرطة أو شيء من هذا القبيل. كان الضابط صغير السن، والذي كان مرتديًا ملابس مدنية، شديد الوقاحة، على عكس رئيسه، فدون أن يقدم نفسه، بدأ في التجول في الصالة، والعبث بمحتوياتها، ودخل بعدها إلى غرفة النوم، دون استئذان، وبدأ في فتح أدراج الدولاب واحدًا وراء آخر، قبل أن يلتفت إلى إستر ويسألها: "أنت عايشة في العفانة دي إزاي؟" لم يتح لنا وقت للإجابة، أو حتى لابتلاع تلك الإهانة غير المبررة، فمعاون الشرطة دخل جاريًا إلى الغرفة، ممسكًا بيده غطاء لزجاجة بيرة: "لقيت دي يا باشا، في المطبخ".

تفحص الضابط الغطاء، بتمعن، واستدار إلى كلانا، وعلى وجهه ابتسامة ارتياح واسعة، وبدأ في استجواب إستر، "يعني أنت ما كونتيش سكرانة لما ده حصل؟" نفت إستر، وأضافت أنها لا تشرب سوى في المناسبات، وكأس صغير من البيرة لا أكثر. لكن الضابط الوقح فاجأنا، بأكثر السيناريوهات غرائبية لتفسير الجريمة. فبعد أن رفضت أن أجاريه في تلميحه لي أكثر من مرة، بأنه ربما لإستر علاقة أخرى، وأن الأمر ربما كان شجارًا لها مع عشيقها، فإنه تحول فجأة لأبعد مما كنت أتخيل أن يصل له الأمر. فالضابط تحول من استجواب إستر عن غطاء البيرة، لاستجوابي عن مكان تواجدي أثناء وقوع الجريمة. كنت غير مستعد لهذا السؤال، وغير متيقن من الطريقة التي من الممكن بها أن أبرر إقامتي في جزيرة المانجو، دون إثارة الشبهات.

تلعثمت قليلاً، وأنا أخبره بأني كنت في أجازة من العمل، وقضيتها في بيت والدي.

"يعني أنت بالصدفة كنت في أجازة في نفس اليوم اللي حصلت فيه الواقعة، طيب، واستنيت ليه لتاني يوم عشان تروح تاخدها من المستشفى؟"

كانت مفاصلي للحظة قد بدأت في الارتعاش، على وقع السؤال، قبل أن ينقذني دخول معاون الشرطة، وفي يده غطاء آخر للبيرة: "لقيت واحدة تانية في الصالة يا باشا". لم يعر الضابط معاونه أي اهتمام هذه المرة، وصرفه بإشارة من يده، قبل أن يخبرنا بما توصل إليه، والذي لم أظن قطعًا أنه هو نفسه كان مقتنعًا به. فبما أن إستر لا تتهم أحدًا، وبحسب أقوالها في المحضر ليس لها أعداء أو خصومات مع أحد، وبما أن أمر العشيق مستبعد تمامًا، فلا بد وأنني من اعتدى عليها، وهي كانت تحت تأثير الكحول فلم تستطع التعرف عليّ. لم يكن أمامي سوى الابتسام، وهززت كتفي في عصبية لم أنجح في إخفائها. ختم الضابط الزيارة وهو يخبرني بأنه عليهم فحص كل الاحتمالات، وأن هناك أسباب لديه للاشتباه فيّ، ولذا فإن عليّ أن أتوقع اتصالاً منهم في القريب: "تشرفنا في القسم، وندردش شوية".

١١

كانت هذه هي المرة الأولى التي تتغيب فيها الست مرية عن البيت منذ أن بدأت لقاءاتي بأبونا. فقبل يومين، وبعد تلقيها مكالمة قصيرة، صحبتها بكثير من العويل ولطم خدودها بكفيها الاثنين، سافرت إلى البلد لحضور جنازة ابنة خالتها. كان خبر وفاة خالتو سميرة، التي قضى عليها "المرض الوحش" في أقل من شهرين من اكتشافه، مزعجًا لي بالتأكيد، وأنا اعتبرته حينها نذير شؤم، ولم أكن مخطئًا. لكن أكثر ما أقلقني هو غياب الست الوالدة عن البيت. فغيابها كان يعني توقف لكل تلك الطقوس اليومية الرتيبة التي كانت تمارسها بإخلاص، ودون تغيير يذكر، منذ اليوم الذي أصبحت واعيًا فيه بها. فهي وإن لم تمتلك البلاغة الكافية للتعبير عن وجهة نظرها في العالم بشكل متماسك، كان لديها قناعة، عبرت عنها بالممارسة الدؤوبة، بأن الروتين هو ما يجعل حياتها ممكنة، وأن رتابته هي الشيء الوحيد القادر على جعل العالم على قسوته محتملاً. وأنا بدوري كنت قد ورثت ذات القناعة عنها، أو ربما اكتسبتها بفعل الاعتياد. ولم يكن الأمر متعلقًا بالنظام، الذي من شأنه

دائمًا أن يسبغ معنى على الأشياء مهما بلغت تفاهتها، فأنا مثلها لا أعير اهتمامًا كبيرًا بمسألة القواعد وغيرها من علامات النظام.

لكن مسألة الروتين ليست عويصة كما تبدو، فقد توصلت منذ وقت ليس ببعيد، بأن لرتابته علاقة بالزمن، فتلك الدوائر المغلقة من التكرار تجعل اليوم كالأمس تمامًا، وتحمل طمأنينة بأن شيء لن يتغير في الغد أيضًا. غير أن تلك الضمانة لم تحمل ذات المعنى لكلينا، فروتين الخوف الذي تمسكت به هي، كانت رتابته ضمانة بأن الغد لن يأتي أبدًا، فهي لسببٍ ما كانت موقنة بأن المستقبل يعني الخطر، ولذا لا مفر من قتله تمامًا، وفي مهده. أما أنا فقد أطلقت على ما يخصني منه "رتابة اليائسين"، فالأمر مجرد قبول بالأمر الواقع. فلا شيء له أن يتغير في الغد مع الأسف، ولذا فمن الأفضل التعامل مع المستقبل، وكأنه لن يأتي أبدًا، تفاديًا لخيبة الأمل.

تجاهلت تلك الأفكار بينما كنت أستعد للنزول للقاء الكنيسة، فأنا كنت أحاول تخفيف انزعاجي بتفريغ رأسي أو شغلها ببعض التفاصيل غير المهمة. وقد نجحت في هذا، إلا أنني وفي طريقي للخروج، فتح الوالد باب غرفته، على غير المعتاد. فهو كان قد حبس نفسه داخلها منذ خروجه إلى المعاش، قبل خمسة سنوات، وعادة لا يغادرها إلا حين يذهب إلى وسط البلد لشراء شرائط كاسيت لمطربين قدامى. فهو لا يستمع إلى الراديو بالطبع، ولا يجد متعة في الاستماع إلى الأغاني على التلفزيون، فـ"الموسيقى للأذن، والعين تفسدها"، كما كان

بكرر دائمًا متظاهرًا بالحكمة. أما غرضه الآخر حين يفتح بابه، فكان لقول شيء يعكر أمزجتنا، وهذا ما فعله هذه المرة أيضًا:

"إنت لسه بتروح تقابل القسيس، وشغل الجنان ده!"

لم يكن هناك الكثير مما يمكنني قوله للاعتراض، فالأمر كله جنون محض بالفعل، ولم أكن لأقدم عليه سوى لأنني مضطر.

"هنعمل إيه بس، إن كان لك عند الكلب حاجة".

ظهر على الوالد بعض الارتياح، ربما بفضل كلمة الكلب التي استخدمتها، "يا ابني، طبق له خمسين جنيه في إيده، ويخلص الموضوع".

هززت رأسي متظاهرًا بالموافقة، فلم يكن عندي ما يكفي من الوقت لأشرح له أن في غيبته الطويلة عن العالم، لم يعد كهنة الكنيسة معنيين بالمال، فهناك ما يكفي منه، وأن هناك أمورًا أخرى، أكثر غواية، هي ما تشغلهم.

في الطريق إلى الكنيسة، كان كل شيء كما هو، تمامًا، نفس الحشود الخارجة من المترو بعنفوانها وقتامتها، كما هي، وإن لم تصبني بالجزع كالمرة السابقة. فأنا كنت منشغلاً عما حولي، بما ينبغي أن أخبر أبونا به هذه المرة. لدى كثير من القصص بالطبع، ويمكنني اختلاق بعضها أيضًا، لكنني أعرف أن فرصتي للاختباء وراء الماضي قد نفدت، وأن الرجل قد صبر على حِيَلي إلى حين، لا لأنها انطلت عليه، بل لأنه يعرف أن الوقت في صالحه هو. قررت أن أتظاهر بأن قصصي قد

وصلت إلى نهايتها، وأن أقترح عليه أن دوره في طرح الأسئلة ربما أصبح ضروريًا، وهذه كانت مغامرة غير مضمونة العواقب، لكن كان لا مفر من خوضها في النهاية.

حين وصلت إلى الدور الأول من المبنى، كان الباب الأخضر مغلقًا، على غير العادة. وأنا فهمت أنها ليست مجرد صدفة، وربطت الأمر بكل نذر الشؤم التي تبينت لي في اليومين الماضيين. فأبونا ربما يبغي أن يضع قواعد جديدة للقاء، أو أن يقيم حجابًا من نوع ما بيني وبينه، أو عتبة يتطلب تخطيها إذنًا. طرقت الباب بخبطتين خفيفتين، كما يقتضي عرف الأبواب غير المكتوب، والذي نعرفه جميعًا ولا يحتاج الكثير من التفكير.

قام أبونا بفتح الباب بنفسه، وهذه كانت علامة جيدة إلى حدٍ ما، لكن مكتبه ظهر وكأنه مكانًا آخر غير الذي أعرفه. فستارة ثقيلة وغامقة، لم ألاحظها من قبل، كانت تحجب ضوء النافذة الوحيدة فيه. ومع أن الساعة كانت لا تزال الثالثة عصرًا، فالغرفة كانت مظلمة كالليل، ولا يضيئها سوى أباجورة القراءة على طاولة مكتب أبونا، والتي لم تكن تضيء سوى بقعة صغيرة منها. وبمجرد جلوس الرجل على مكتبه، تبين لي سبب الترتيب الجديد، فوجه أبونا كان غائمًا في ظلمه الغرفة، وظهر نصفه الأعلى كظل بلا ملامح، يحجبه ضوء الأباجورة الساطع الذي كان يفصل بيننا.

بدأ أبونا جلستنا بالتحيات المعتادة، مضيفًا إليها تعزيتي في الخالة، فهو كما قال قد سمع بالأمر متأخرًا جدًا، ولولا هذا لكان قام بزيارتنا في المنزل لتعزية الوالدة، قبل سفرها. وأنا التقطت دون جهد كثير ما يلمح إليه، فالأخبار كلها تصله، ولو كان بعضها متأخرًا قليلاً. لم يضع الرجل الكثير من الوقت، فدون أن أتقدم باقتراحي الذي كنت عزمت عليه في الطريق، قام هو بالمهمة. فبعد أن أخبرني بأن إجابتي المطولة بخصوص غيابي عن الكنيسة، كانت كافية، وتفهمها، أضاف أن لديه سؤالاً أو اثنين يود أن يسمع إجابة لهم قبل أن يبت في أمري:

"أنا سمعت إنك شيوعي، يا شريف، الكلام ده مظبوط؟"

لم يكن هذا سؤالاً متوقعًا، أو على الأقل فإن صيغته كانت صادمة وخشنة بلا مبرر. فالرجل لم يحاول تلطيفه ولو قليلاً، أو حتى تحمل مشقة طرحه بعد شيء من المقدمات.

"وده إيه علاقته بموضوعنا يا أبونا؟"

لم تكن صيغة سؤالي، الذي حاولت به اكتساب بعض الوقت لترتيب أفكاري، موفقة هي الأخرى. فأبونا انتفض واقفًا من وراء كرسيه، وهو يخبرني بأنني لست مرغمًا على الإجابة على هذا السؤال ولا غيره، ولا حتى على الحضور لمقابلته بالأساس، وأنني من طلب مقابلته لا العكس. وفي كل الأحوال، فإن سؤاله وثيق الصلة بغرض لقائنا، فهو عليه التيقن من إيماني المسيحي، وعقيدتي وقناعاتي بشأنها.

كنت على وشك الشروع في الحديث، لولا أنا أبونا بالغ قليلاً في ردة فعله. فالرجل هرول إلى بابه غرفته، وفتحه على آخره:

"الباب مفتوح يا بشمهندس، اتفضل، محدش ماسك فيك."

للحظة، نظرت إلى الباب، عازمًا على الخروج منه في الحال، لكن وخزة الألم في عيني التي سببها وقوع الضوء الذي دخل منه، دفعتني للتراجع. أدركت أن هذه هي نهاية المعركة، وأن الرجل كان قد انتصر بالفعل، وبحركة بسيطة واحدة، كان قد احتفظ بها في جعبته طوال الوقت، حتى اللحظة المناسبة. حاولت المقاومة للمرة الأخيرة، وإن كانت حركة يائسة من جانبي، ولم تعنِ غير الاستسلام، "يا أبونا، أنا مش جاي هنا بمزاجي، إنت عارف إني هنا بالقانون".

"وأنا يا ابني ما بحطش القانون، بيمشي عليَّ غصب عني زيي زيك، ممكن تروح مجلس الشعب تشتكي."

كانت فرصتي الأخيرة قد ضاعت، فتوقيع صغير من الرجل هو فرصتي الوحيدة للنجاة، ولو خرجت من هذا الغرفة الآن فسيكون الأمر انتحارًا مؤكدًا. توجهت إلى الباب بخطوات متثاقلة، وأمسكت بأكرته، بعد أن استأذنت الرجل، وأوصدته كما كان:

"الله يفتح ولا أحد يغلق، ويغلق ولا أحد يفتح."

ابتسم أبونا لاقتباسي الإنجيلي، "اتفضل أقعد يا بني، الرب بيقول كمان، هأنذا واقف على الباب وأقرع، إن سمع أحد صوتي، وفتح الباب.."

أكملت لأبونا الآية التي ترك نهايتها مفتوحة لي: "أدخل إليه وأتعشى معه وهو معي".

"بالظبط كده، الله ينور عليك، يا ابني"

كنت قد جلست، وشرعت في الإجابة، مستسلمًا لحقيقة أنه بدءًا من هذه اللحظة لم يعد أمامي سوى الانصياع. أنا لست شيوعيًا يا أبونا طبعًا، ولا حتى أعرف على وجه الدقة ما يعني أن يكون المرء منا شيوعيًا. أما السياسة عمومًا، فأنا لم أكن يومًا معنيًا بها. فالسياسة تتطلب حدًا أدنى من الحماس، وهذا شيء كنت أفتقده منذ الطفولة، وأحسد عليه الآخرين. فحتى حين يتعلق الأمر بمباريات كرة القدم، كان عليّ التظاهر بالإثارة، لمجاراة مَن حولي لا أكثر، وكنت دائمًا ما أشجع الفريق المحكوم بهزيمته، وفي المرات التي كانت حظوظ الفريق الذي اخترت تشجيعه تتبدل في وسط المباراة، سرعان ما كنت أغير ولائي إلي الفريق الآخر، وكل هذا لمداراة افتعال حماستي. فأنا أفضل كثيرًا جدًا، وأكثر إقناعًا، في اصطناع الفجيعة وإظهارها بعد كل هزيمة، وهي كانت تخرج مني صادقة، كل الصدق، حتى أنني كنت أبكي بعد كل مباراة للزمالك، حتى ولو فاز بها.

لكن وإن كانت الحماسة شأنًا هينًا، يمكن ادعائها أو التظاهر بها في معظم الأحيان، إلى الحد الذي تنقلب معه إلى مظلومية كافية لتعاطي السياسة. فأنا كنت قد عرفت منذ عمر مبكر أن الضرب قرين السياسة. وهذا ليس الضرب الذي يمكن أن تتصوره في أقسام الشرطة وغيرها،

بل ضرب آخر. ففي المدرسة الابتدائية، كنا نلعب لعبة الحرب في الفسح وبعد انقضاء اليوم الدراسي. والحرب، لا يمكن لعبها سوى بفريقين على الأقل. ولأن كل الأطفال الأخرين عداي، كانوا يريدون أن يكونوا مصر، فأنا كنت أختار طواعية أن أكون في الجانب الآخر، والذي كان يتم تخييري فيه بين أن يكون إسرائيل أو أمريكا. ولم أكن وحدي طبعًا، فطفل قبطي، شديد السمنة، اعتاد أن يتبعني كظلي في المدرسة، كان ينضم إلى جانبي دائمًا. وربما تجد الأمر غريبًا، فلماذا أعرض نفسي لضرب الحصى وأكياس الرمل، التي عادة ما تبعتها الركلات في البطن واللطمات على الوجه، بكل هذا الرضا؟ وأنا نفسي كنت مترددًا بشأن هذا السؤال، إلا أنني توصلت لاحقًا، وبعد طول تفكير، أن الموضوع ربما له علاقة بالانتقام.

فأنا قطعًا لم أقدم على تحمل الضرب، من باب التضحية حتى ينعم الآخرون بلعبتهم. لكن ولأنني كنت قد سمعت من جدتي المرة بعد الأخرى، أن أبناء بلدتها يدعون أننا صهاينة، وعرفت من حكايات أبي، بأن طائفة الأمريكان قد نبذت جدي بعد أن ظن لوقت طويل أنه واحد منهم، فأنا كنت أنتقم في كل ضربة أتلقاها لهم جميعًا، أنا صهيوني إذا كان هذا ما تريدونه مني، وبالعند فيكم، أنا أمريكاني غصب عن عين الأمريكان نفسهم.

تململ أبونا في جلسته، وبدا عليه عدم الارتياح، من تعبيراتي المبالغ فيها، وهو يقاطعني: "بس إنت يا شريف بتروح مظاهرات، وأنا عارف ده كويس".

لم يكن واضحًا لي كيف تحصل أبونا على تلك المعلومات، فأنا قد حرصت على إخفاء الموضوع عن الجميع بما فيهم أمي، ولكنني خشيت مغامرة سؤاله عن مصادره، واستكملت حديثي بعد إيماءة برأسي بالموافقة على صحة كلامه.

يا أبونا هذه حكاية أخرى تمامًا، ولأكون صادقًا معك، أنا احترت في دوافع تورطي فيها. فأنا بالطبع، كنت أقرأ في كل تلك الكتب المترجمة التي يحضرها والدي إلى البيت، أو تبادلتها مع ياسر في سن الجامعة، عن ثورات وانقلابات وأمور كثيرة تتعلق بالسياسة، وكانت هي الشيء الوحيد الذي نجح في بث قليل من الحماسة في نفسي. لكنني كنت مقتنعًا أن مثل هذا الأشياء، تحدث في أمكنة أخرى، ولا يمكن لها أن تحدث عندنا. وياسر كان دائمًا متفقًا معي في هذا الأمر، فإن شيئًا لدينا لن يتغير، ولذا اكتفينا بقراءة الروايات المترجمة، واعتبرنا أمور السياسة التي تتخللها أحيانًا كثيرة، مجرد موضوع يليق برياضة ذهنية صافية لا أكثر.

ربما حين ناولني علاء لأول مرة، بيان حركة "كفاية" التأسيسي، والذي لطالما تباهى بأنه من أول مئة اسم وقعوا عليه، شعرت ببعض الحرج، أو خفت من أن ينعتني بالجبن، فوقعت أنا أيضًا. ويجوز أيضًا أن إدماني للهزائم والوقوف إلى جانب الخاسر، هو ما دفعني لادعاء الحماسة في المظاهرة تلو الأخرى، وتصنُّع البؤس بعد تفريق الشرطة لنا بعنف كل مرة. أو لعله العند الممزوج بالحماقة الذي ورثته عن جعفر، أو أن الأمر انتقامًا آخر، لا يشبعه سوى الألم الذي تطبعه هراوات

عساكر الأمن المركزي على الأجساد. ولا يمكنني إنكار احتمالاً أخير، مع سخافته المثيرة للخجل، فلعل هذه كانت فرصتي الوحيدة لمداواة صدمة اكتشافي أنني لا أشبه الخواجات، فلو أثبت إخلاصي لتلك الأفكار التي حشت بها كتبهم المترجمة رؤوسنا، واستعدادي للتضحية في سبيلها، فأنا قطعًا واحد منهم، بل وجدير بأن أكون في مصاف أبطالهم.

أيًا كانت الأسباب يا أبونا، فأنا أؤكد لك أنني لست شيوعيًا، ولا خطرت الفكرة على بالي يومًا أصلاً.

كان أبونا راضيًا عن إجابتي ومكتفيًا بها، ولم يظهر أن لديه المزيد من الأسئلة. ودون أن يؤكد على موعد لقائنا التالي في نفس الموعد كعادته، صرفني بتلاوة البركة الرسولية كاملة: " نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله وشركة الروح القدس مع جميعكم آمين"، قبل أن يمد لي يده بالصليب لتقبيله وتقبيلها، وفعلت، برأس منحنية بالطبع.

١٢

كانت قد مرت ثلاثة أيام على زيارتنا للقسم، حين التقينا للاحتفال بليلة رأس السنة. في البداية دعانا علاء للقاء في بيته، لكن إستر أصرت على أن يكون الاحتفال في شقتها، لا لشيء، سوى أن تثبت لنفسها أن شيئًا لم يحدث هناك على الإطلاق. وأنا لم أكن في الحقيقة معنيًا لا بالاحتفال ولا بمكانه، فلم يكن هناك سببًا له بالأساس وكنت أفضل لو مرت تلك السنة بلا مكان لها في الذاكرة، أو علامة تميزها عن غيرها. إلا أن إستر التي لا تعطي في الغالب اهتمامًا كبيرًا، بالاحتفالات والمواسم وما شابهها، كانت متحمسة جدًا، هذه المرة، وبذلت مجهودًا كبيرًا في تزيين الشقة وتجهيز الأطعمة والمشروبات وغيرها من الاستعدادات. ربما كانت هذه هي طريقتها في الإمساك بمصيرها ومصائر من حولها، المُعلّقة في الهواء، وكأن لنا سلطة على الزمن وسريانه، نوقفه هنا وهناك للحظة، في كل موسم، وندعه يتداعى بعدها إلى حين، نضع نهاية لما مضى، ونبدأ من جديد، على أمل أن المواسم ستعود مرة أخرى، وفي نفس موعدها.

وصل علاء أولاً، وبعدها انضم إلينا صديقان ألمانيان كانت إستر قد تعرفت عليهما قبل بضعة أسابيع. ولم يكن متوقعًا حضور ياسر، فكالعادة اعتذر عن الدعوة، مع وعد بأنه ربما ينضم إلينا في نهاية الأمسية إذا توفر له بعض الوقت. أما مريم، وبالرغم من إلحاح إستر عليها، فلم يكن أمامها خيار سوى البقاء في المنزل مع أولادها. فمايكل كان قد قرر أن يحمل بعض الحلوى والألعاب لتوزيعها على الأطفال في اعتصام اللاجئين، وأن يقضي الأمسية مع بعض من رفقائه هناك، على أن ينضم إلينا لاحقًا.

كانت الليلة رتيبة قليلاً، وربما هذا كان كل ما نحتاجه وسعت إليه إستر. فما الذي يمكنه أن يعيد لنا بعض من توازننا في وسط كل ما يجري، سوى بعض من الرتابة وطمأنينة توقعها. علاء رفض أن يشرب، واكتفى بالقهوة التي احتسى فناجينها واحدًا وراء آخر طوال الأمسية، مع قليل من الكلام.

أما إستر، التي بدا عليها التوتر، فقد شغلت نفسها، بجمع أغطية زجاجات البيرة الكثيرة التي كان يشربها صديقاها الألمانيان، والعبث بها. فمرة ترتبهم في صف طويل على المائدة أمامها، ومرة ترصهم واحدًا فوق الآخر، حتى يختل توازنهم فتعيد المحاولة مرة أخرى. ومع أنها كانت تتوقف عن لعبتها هذه، كل حين وآخر، لتسلية ضيفيها الألمانيين وسؤالهما عن انطباعاتهما عن القاهرة، وأمورًا أخرى من هذا القبيل، إلا أن عينيها كانتا مثبتتين معظم الوقت على أغطية زجاجات البيرة،

والتي كانت تعود إليها، أو تحملها معها ناقلة إياها من يد إلى الأخرى، أثناء الحديث.

"البت جرالها حاجة في عقلها! إيه اللي بتعمله بالكازوز ده؟"

كان لديَّ تفسيرًا مقنعًا لسؤال علاء، الذي طلب أن أذهب معه إلى المطبخ لعمل فنجان من القهوة له. لكنني فضلت تحاشي الكلام عن الأمر. ولم يكن هو أيضًا منتظرًا إجابة لسؤاله، فهو قد انتهز فرصة انفراده بي للاطمئنان على مشكلتي في العمل. وكان توجسه في محله، فأنا قد وصلني في الصباح خطاب مسجل، يستدعيني لتحقيق في الشؤون القانونية، حدد موعده بعد أسبوعين. لم يتوفر لي الوقت لإخبار علاء بأمر الخطاب، ولا له لشرب قهوته. فإستر كانت قد دخلت علينا في المطبخ بخطوات سريعة، وقاطعت حديثنا: "أنا لازم أنزل دلوقتي".

وقفنا أنا وعلاء مشدوهين، ونحن نشاهد إستر تلبس جاكيتها الثقيل، وتعد حقيبتها بعناية، دون أن تنبس بكلمة واحدة. غادرت إستر بالفعل، بعد أن وضعت الكازوز بهدوء في شنطة بلاستيكية سوداء أخذتها معها. حاولت أن ألحق بها، لكن علاء أمسك بكتفي، ومنعني:

"يمكن تكون محتاجة تبقى لوحدها."

انفضت الليلة بالطبع، غادر علاء بعدها بدقائق، وبعده بقليل الضيفان الألمانيان اللذان لم يظهر عليهما الاكتراث بما حدث، أو ربما لم

يفهما أن شيء ما حدث بالأساس. وأنا غادرت أيضًا إلى منزل العائلة. كنت قد تيقنت أن إستر فقدت عقلها تمامًا، وأنه من الأفضل لعلاقتنا أن تنتهي، والغريب أنني شعرت براحة ما تجاه قناعتي تلك، حتى أن النوم الذي استعصى عليَّ في الليالي السابقة، غلبني بعد دقائق قليلة من دخولي إلى السرير.

لكن اطمئناني لأن شيئًا واحدًا من بين كل ما يجري أصبح يقينيًا ومحسومًا لم يدم أكثر من ليلة واحدة. ففي الصباح، وحوالي الساعة التاسعة تلقيت مكالمة من إستر. كان صوتها خاليًا من أي مشاعر، وهي تخبرني بما حدث ليلة أمس. فبينما كنت وعلاء في المطبخ، تلقت هي مكالمة من مديرتها في العمل، والتي أخبرتها بأن الشرطة قد هاجمت اعتصام اللاجئين، بنية فضه، وأن الأمور سارت بشكل سيء جدًا، وربما عدد كبير من المعتصمين قد لقوا حتفهم. ولم تطلب المديرة من إستر أن تقوم بأي شيء بالطبع، فلم يكن هناك ما يمكن عمله. إلا أنها قصدت إعلامها بالأمر، كما أنها كانت تريد أن تسألها إن كانت تعرف أي شيء عن مريم وزوجها، أو إن كان أيًا منهما في الاعتصام.

لم تدر إستر بنفسها سوى بعد أن وصلت إلي ميدان مصطفى محمود، وكان الأمر قد انتهى. عشرات من جثث اللاجئين المكومة فوق بعضها على جنبات الميدان، وبعض جثث لأطفال سود البشرة وضعت على حشائش الحديقة التي تتوسطه، في صف جنبًا إلى جانب. شاهدت إستر رجلاً من سكان المنطقة، ينهال بقضيب معدني، بضربات ممتلئة بالغل على أحد الجثث، ولم يتوقف سوى بعد أن تحطم جزء من جمجمة

الرأس وبدأت مادة بيضاء مخلوطة بالدماء في التناثر منها، مع كل ضربة، وتلطيخ وجهه وملابسه. وبعدها انتقل لجثة أخرى. عشرات من عساكر الأمن المركزي كانوا منهمكين بكل همة في تنظيف الميدان، وإزالة آثار الدماء، بينما انشغل البعض الآخر منهم في تحطيم ما تبقى من خيم الاعتصام. كان كل شيء قد كوم في منتصف الميدان، وتم إشعال النار فيه.

تخبرني إستر بأن ما أفزعها لم يكن كل هذا، بل إنها لم تشعر بأي شيء حياله، بأي شيء على الإطلاق. بدا الأمر وكأنها تشاهد شريطًا سينمائيًا قديمًا، كانت قد شاهدته في الماضي مرة بعد أخرى، في مكان ما أو في أمكنة أخرى كثيرة. لكن أكثر ما أثار جزعها من نفسها، أن مشهد النيران، التي اقتربت هي منها إلى مسافة خطوتين لا أكثر، كانت سببًا لبث قليل من الألفة في روحها، وبعض من الدفء في جسدها.

لم يكن هناك مبرر في البقاء أكثر من هذا، فبعد أقل من ساعة، كان الميدان خاليًا تمامًا، ونظيفًا كما لم تره من قبل، غادر الجميع، باستثناء اثنين من عمال الحدائق اللذان كانا يقلمان أشجار الميدان، ونباتاته بهدوء، فيما كان يمر عليهم قليل من المصلين في طريقهم لصلاة الفجر في جامع مصطفى محمود.

لم تدع إستر فرصة لي للتعليق على ما قالته، وانتقلت مباشرة إلى إخباري بأنها ذهبت بعد ذلك إلى بيت مريم واصطحبتها هي والأولاد للمكتب، فمايكل مفقود، ولا أحد يعرف عنه شيئًا، ومريم بالطبع في

حالة يرثى لها. لم يفقد صوت إستر تماسكه وجديته وهي تضيف أنه ليس أمامنا سوى الانتظار، فمديرتها بالتعاون مع بعض المنظمات الأخرى، تحاول تجميع روايات شهود العيان، والتواصل مع السلطات للوصول لحصر بعدد القتلى والمعتقلين، وأماكنهم، وربما أسمائهم أيضًا، وغالبًا سيستغرق الأمر بعض الوقت، ولذا فهي ستكون مشغولة خلال اليوم، ولا يجب أن أقلق إن لم أسمع منها قبل نهايته.

غابت إستر بالفعل، لبضع ساعات، كنت قد تلقيت فيها مكالمات من علاء وياسر وأصدقاء آخرين، للسؤال عن مايكل، ولم يكن هناك ما يمكنني قوله، سوى الانتظار. وخلالها، ذهبت إلى محل عملي، عسى أن أتمكن من مقابلة عبد العظيم، الذي كان هاتفه مغلقًا طوال الوقت. لكن أمن المبنى منعني من الدخول، وأخبروني بأنني موقوف عن العمل، مع أن هذا لم يكن منصوصًا عليه في خطاب الشؤون القانونية. افترضت أن المنع لم يأت بشكل رسمي، وأن هناك شيء ما يجري، أكثر من مجرد التحقيق. لكن الأمر لم يشغلني كثيرًا، فأنا كنت قد توصلت إلى أن محاولة التفكير فيما يجري، أو تفسيره، أصبحت بلا جدوى، إلى درجة أنني كنت غير مبال حتى بمعرفة مصير مايكل.

اتصلت إستر بي، بنهاية اليوم، وكانت الساعة في حدود الخامسة. بدا صوتها مرهقًا ومنكسرًا، لم يرد اسم مايكل في أي من القوائم التي تحصلت عليها المنظمة عن أسماء المعتقلين، المحتجزين في معسكرات للأمن المركزي. ولم يتوفر من روايات شهود العيان ما يشير إلى مصيره.

لكن المنظمة التي تعمل بها، نجحت في استصدار موافقة لمريم وبعض من أهالي المفقودين، لدخول المشرحة، ومعاينة جثث القتلى. وبالرغم من بشاعة الأمر، فإن إستر قررت أن تذهب مع مريم، للوقوف بجانبها في تلك الساعة حالكة السواد، وترجتني أن أقابلهما أمام مشرحة زينهم بعد ساعة، وإن كان لن يسمح لي بالدخول، لكن وجودي سيعني الكثير لها. قفزت في أول تاكسي، فلم يكن أمامي الكثير من الوقت، لكن زحمة المرور لم تسعفني.

وصلت إلى المشرحة متأخرًا قليلاً، وكانت مريم قد دخلت بالفعل بصحبه إستر. ولم يطل انتظاري سوى خمس دقائق، قبل أن أسمع صوت عويل مريم وصرخاتها، وهي تخرج راكضة من الداخل، وإستر تحاول اللحاق بها. توقفت مريم عن الركض، بمجرد أن لمحتني، وبدأت في لطم خديها بيديها الاثنتين بضربات شديدة القوة، قبل أن تلقي بنفسها على الأرض، وهي تصرخ بكلمات لم أتبين معناها، لكنني فهمت ما حدث. نزلت إستر على ركبتيها، ووضعت إحدى يديها على فم مريم لكتم صراخها، وباليد الأخرى حاولت تقييد يديها لمنعها من اللطم. استسلمت مريم بعضٍ قليل من المقاومة، واكتفت بشهقات من فقد قدرته على البكاء.

كان هذا هو الموت، أواجهه لأول مرة، ولم أعرف ما كان علي فعله، أو أن أشعر به، فنحن لا نعرف الموت الذي نسمع عنه كل الوقت، سوى حين نراه يخطف أحدنا، هكذا ببساطة، ويختفي، وحينها يكون الوقت متأخرًا جدًا لتعلم أي شيء. حاولت أن أتظاهر

بالتأثر، واستحضار صور لمايكل في ذهني لهذا الغرض، وتوقفت عن هذا بعد أن كادت أن تفلت مني ضحكة كنت أقاومها من البداية. ربت على كتف مريم عدة مرات، وحاولت مساعدتها على النهوض، لكن كل هذا بدا سخيفًا لي، وغير لائق بالموقف. اكتفيت بالوقوف صامتًا، فربما هذا هو الشيء الوحيد الممكن فعله أمام الموت. احتفظت إستر برباطة جأشها، إلى حد أصابني برغبة في القيء، فبالرغم من الدموع التي لم تتوقف من الانهمار على خديها، ظلت قسمات وجهها جامدة، وصوتها لم تخالجه أي رعشة، وهي تطلب من مريم أن تهدأ، وتوجهني لإحضار تاكسي للمرور على المكتب لإحضار الأولاد، وتوصيلهم مع أمهم لبيتهم، وهذا ما فعلته.

جلست بجانب السائق صامتًا، بينما فعلت إستر كل ما يلزم، اتصلت بصديقة أخرى للبقاء في الشقة مع مريم والمبيت معها. ونجحت في تهدئتها، لأجل خاطر الأولاد، فلا داعي لترويعهم، وقامت بعدد من المكالمات لترتيب أمورًا أخرى لم أهتم بمعرفتها. وفي الطريق، طلبت من السائق التوقف لشراء بعض الطعام، والحلوى للأطفال، والذين اندمجوا في اللعب معها، إلى الحد أنهم لم يلاحظوا دموع أمهم التي كانت تنفجر من مقلتيها، غصبًا عنها، بين حين وآخر.

تركنا مريم في البيت، بعد وصول الصديقة الأخرى، وتوجهنا بعدها إلى شقة إستر، فهي كانت مجهدة وفي حاجة للنوم، ولكنها دعتني للصعود معها، حتى تخبرني بما حدث، وبعدها يمكنني أن أتركها لترتاح.

الأمر أن مريم، ومن اللحظة التي سمعت فيها بخبر فض الاعتصام، أخبرت إستر بأنها موقنة أن مايكل قد مات، فقلبها كان منقبضًا منذ أن أعرب لها عن نيته قضاء رأس السنة في الاعتصام. كان لدى مريم اعترافًا، يؤرق ضميرها، وهي أخفته لأجل خاطر مايكل، لكن لا داعي لكتمانه أكثر من هذا. فهي كذبت حين أخبرتنا بأن الصورة التي أهديناها لمايكل في عيده ميلاده ما زالت معهم. ففي ليلة عيد ميلاده، وبعد انصراف معظمنا، بما فينا مريم نفسها التي رجعت للبيت مبكرًا حتى ينام الأولاد، بقي مايكل مع بعض أصدقائه، في البار، وشرب أكثر من اللازم. ومع أنه لم يكن سكرانًا بشكل واضح، كما أخبرها، فإنه وفي طريقه إلى البيت في تلك الليلة، تم توقيفه في كمين، في وسط البلد.

وربما بفعل رائحة الكحول التي كانت تفوح منه، فإنه تلقى معاملة أكثر قسوة من غيره في الكمين وبعدها في القسم. وهناك لم يعتدِ أحد عليه بالضرب، ربما بسبب طوله الفارع وجسده شديد الضخامة، لكن ضباط القسم كانوا قد أهانوه بما يكفي ويزيد ألمًا عن الضرب. وبالطبع فتشوا حاجياته، والتي كانت معظمها هدايا تلقاها ليلتها. لكن وفيما تقاسم من تولوا التحقيق معه، تلك الهدايا، فإن الصورة، التي انتزعوها من الإطار هي ما أبهجتهم أكثر من غيرها:

"ومين اللي معاك في الصورة دول كمان؟"

أقسم مايكل لمريم مرة بعد مرة، أنه لم ينبس بكلمة، سوى أنهم أصدقائه، بالرغم من تهديدهم له بالضرب، وأنهم سيُرحّلونه للسودان، أو سيلفقون له تهمًا لن يخرج من السجن بعدها. قضى مايكل ليلة في إحدى غرف القسم، وأطلقوا سراحه في الصباح التالي، ورفضوا أن يرجعوا له الصورة، التي طلبها بإلحاح، فأحد الضباط أخبره بأنها تهمه لسبب ما.

نسي مايكل موضوع الصورة، إلى أن عرف بقصة الجريدة. وكما قالت مريم، فإن الأمر قد أصابه بشعور شديد بالذنب، فبلاشك هو كان السبب في توريطنا في كل هذه المشاكل. ولم يكن غضبه الشديد حين عرف أننا أخفينا عنه موضوع الجريدة لبعض الوقت، سوى محاولة لتغطيته على شعوره هذا. لكن كان للأمور أن تسوء أكثر، فبعد أن سمع بالاعتداء التي تعرضت له إستر، أخبر زوجته مرة بعد الأخرى بأنه يتمنى الموت، فكل ما حدث كان خطؤه، وهو أجبن من الاعتراف بذلك لنا، بل وأكثر ما يثقل قلبه أنه يرغمها على الكذب معه أيضًا.

كانت مريم قد أخبرت إستر قبل الذهاب إلى المشرحة، بأن مايكل مات، كما تمنى، فهو لم يعد يطيق الحياة، ولا احتمال قلقه من عار انكشاف سره أمام الجميع. وعند وصلت مع إستر إلى هناك، تم تجميع أهالي المفقودين، في ساحة خارج مبنى المشرحة، واستقر الأمر على معاينتهم للجثث على دفعة واحدة، ولأن العدد كان كبيرًا، فتم تنظيمهم في طابور طويل، للدخول واحدا وراء آخر، إلى واحدة من غرف ثلاجات الموتى، ليمروا على الجثث كلها تباعًا، وبعدها

يصطفون مرة أخرى لمعاينة جثث أخرى في الغرفة التالية. لكن مريم، فعلت شيئًا غير مفهوم، فهي خرجت من الصف، وتوجهت إلى غرفة أخرى وحدها، وبخطوات واثقة، وكأنها تعرف وجهتها بالضبط. تبعتها إستر بعد لحظة من التردد. كانت الغرفة خالية سوى من عامل واحد، والذي توجه نحو واحدة من أدراج الثلاجات لفتحها لها. إلا أن مريم، لم تلتفت إليه، وتوجهت إلى درج ثلاجة بعينه، كأنها تعرفها من قبل، وفتحتها بنفسها، دون مبالاة باعتراضات العامل على ما تفعله.

أخبرتني إستر بأن مريم نظرت للحظة واحدة قبل أن تنطلق منها صرخة مكتومة، وتبدأ في الركض إلى الخارج. نظرت إستر هي الأخرى، بدافع الفضول، ولم تستطع أن تتبين شيئًا، فعظام الوجه كانت محطمة تمامًا، والملامح مشوهة إلى أقصى حد، وهي لم تفهم كيف تعرفت مريم عليه، بهذه السهولة، وكيف تيقنت من أنه مايكل في أقل من لحظة واحدة.

"يعنى ممكن ما يكونش مايكل؟"

هزت إستر كتفيها، بلا مبالاة، فكيف لها أن تعرف، "كله هيبان"، وبعدها طلبت مني أن أتركها لتنام، على أن أعود للقائها في الصباح، فالقسم قد هاتفها، وطلب حضورنا نحن الاثنين لمتابعة إجراءات التحقيق في الغد.

١٣

تلكأت قدر الإمكان، وأنا أتجهز لميعاد أبونا، فالست الوالدة كانت مشغولة بممارسة طقوس الفجيعة، منذ عودتها من البلد، بعد جنازة الخالة. ولثلاثة أيام، كانت تجلس القرفصاء في أحد أركان الصالة، تدمع في صمت، وتتمتم أحيانًا، بلعناتها للقدر، الذي خطف بنت البنوت، في عز شبابها، وتشهق بين حين وآخر، قبل أن يعلو صوتها بالنحيب: "ما دخلتيش دنيا يا قلب أمك."

حاولت أن ألفت انتباهها بتلكؤي، لا لشيء، سوى محاولة لصرفها عن حزنها لقليل من الوقت. فأنا كنت قد أدركت أن الروتين المتعلق بالاستعداد لزيارة أبونا، والذي كانت هي طرفًا فيه، لم يكن متواترًا كما ظننت، بل وكان الاستثناء لا القاعدة، الأمر كله كان من صنع خيالي لا أكثر. ولذا لم أجد مانع من مجرد الالتزام به في ذهني فقط، دون أن تقوم هي بدورها فيه. باءت محاولتي بالفشل، فهي لم تنتبه لوجودي في الشقة بالأساس.

لكن كان هناك سبب آخر لتباطؤي، فمنذ لقائي الأخير بأبونا، تملكتني فورات من الغضب منه ومن نفسي، فكيف استسلمت بكل

هذه البساطة، وأغلقت الباب خلفي، كفريسة تحكم قيود الفخ حول نفسها، بكل رضا؟ كان لا مفر، من الاستسلام، كما أخبرت نفسي، لكن ببعض الكرامة، أو حتى التظاهر بشيء منها، ولو بقليل من المقاومة المفتعلة. وهو كان مصرًا طبعًا، ألا يسمح لي بحفظ ما تبقى لي من ماء الوجه. فلماذا دونًا عن كل لقاءتنا، ختم الأخير بمد يده لي لتقبيلها؟ رددت لنفسي كل الحجج الممكنة لتخفيف الأمر، هو رجل في عمر والدي، وربما جدي ولا مانع من تقبيل يده، توقيرًا لشيخوخته، كما أعتاد الجيل الأكبر على تقبيل أيادي آبائهم، وأيضًا كما يقولون نحن لا نقبل أيدي الكهنة، سوى لأنها تمسك الصليب.

كان يمكن لهذه التبريرات أن تخفف من وقع الأمر، لولا أنه كل حين وآخر، كانت تقفز في ذهني، صورة، أبونا مشرقي، قس الكنيسة الإنجيلية التي كنت أذهب إليها في طفولتي، وهو ينحني ليقبل أيادينا نحن الأطفال. والحقيقة، كان هو الشخص الوحيد الذي قبل يدي في حياتي، وأنا لطالما شعرت بكثير من الخيلاء، بسبب مبررات القس مشرقي، التي كان يرد بها على اعتراضات البالغين، على فعلته. فالأطفال أبرياء كالملائكة، وهو يأخذ بركة براءتنا تلك. لكنني الآن ناقمًا عليه، فربما لو لم يفعل هو أفعاله تلك، المبالغ في ادعائها للتواضع، لكان أمر تقبيل الأيادي أخف وطأة عليَّ اليوم، أو حدثًا عاديًا لا يسترعي انتباهي. أفسد الرجل براءتي، ويستحق قليلاً من الغضب هو أيضًا، بل وربما الغضب كله.

المهم، كنت قررت أن الطريقة الوحيدة لمناكفة أبونا انطونيوس، ودفعه للومي، هو الوصول متأخرًا عن موعدي. فاللوم يحمل مسحة من التقدير في النهاية، وشعور ما بالندية والاهتمام، سيسمح لي باستعادة بعض من كرامتي. حاولت فلسفة الموضوع أيضًا، فأنا أعرف أن مسألة الوقت، وتقسيمه وضبطه، كما أنها محاولتنا للتغلب على سطوة الزمن والتظاهر بإخضاعه، فإن تلك السلطة الكامنة في ساعات اليد لا توزع علينا بالتساوي، وتنقسم بين الناس بمقادير متفاوتة ليتسلط بعضهم على البعض الآخر. الفكرة سخيفة طبعًا، فأن تكون وسيلتي الوحيدة الباقية للتمرد هي الوصول خمس دقائق متأخرًا، كان شيئًا بائسًا بكل المقاييس.

"زي العادة، في ميعادك بالظبط، يا بشمهندس".

تجاهل أبونا تأخيري عمدًا، كما أن الباب كان مفتوحًا على مصراعيه، وهو واقف في استقبالي فاتحًا ذراعيه، وعلى وجهه ابتسامة واسعة، كلقائنا الأول. وبعد أن صافحني بحرارة، بدأ في الإعراب عن رضاه عما وصلنا إليه في اللقاءات السابقة، وأنه ربما يكون هذا لقاؤنا الأخير، قبل أن يتمم مصلحتي لديه. بقي أمر واحد، وهو كما قال يدرك حساسيته، وهو يرجو ألا أسيء فهم أسئلته، فهي مدفوعة بغرض واحد، هو أن يعرف ما يلزم عني، والناس الأقرب إليّ، حتى يتمم مهمته. وقبل أن يطرح سؤاله، شدد مرة أخرى على أن مدى تعاوني وتفهمي هذه المرة، تحديدًا، هو الفيصل في الموضوع برمته.

كنت ممتنًا لحكمة الرجل، الذي لعله قد رأى أنني كنت قد انكسرت تمامًا، ولا داعي للمزيد من المهانة، فبعض من الشد، كان يلزمه بعض من الإرخاء بعدها، وإلا ربما انقطع الحبل بيننا. ولذا لم أمانع عندما أخبرني، أن أسئلته هذه المرة، ستكون عمن منحها لقب "خطيبتي"، فلم يكن هناك طريقة أخرى، تليق بالكنيسة، للإشارة إليها سوى هذه.

"وإستير بتاعتك بقى تقية وحكيمة زي إستير بتاعت العهد القديم ولا إيه؟ "

تبع أبونا سؤاله بضحكة قصيرة، لتلطيف نغمته التهكمية، والتي لم تزعجني على الإطلاق، فأنا كان لدي ما يكفي لقوله، لأثبات خطأ افتراضاته. وبدأت بتصحيح نطق الاسم له، فهي "إستر" وليست "إستير".

"طبعًا طبعًا، خواجايه بقى."

نعم يا أبونا، إستر تقية وحكيمة جدًا، مثل إستير العهد القديم. فإذا كنت تقصد بالتقوى، الخشية والخوف، فهي تعرف منهما صنوفًا كثيرة، وإن كان معنى الحكمة هو التعامل مع ذلك الخوف بشيء من الرزانة، بما يكفي لتجاوزه، أو الصمود أمامه، أو بحسب ما يقتضيه، فهي غالبًا أحكم من إستير نفسها. ونعم، هي خواجايه، طبعًا، لكنني عرفت من معاشرتها طويلاً، ومعرفتي لها عن قرب، أن الخواجات، أو على الأقل بعضهم، مثلنا تمامًا، يعرفون الخشية ويضطرون إلى الحكمة،

لا لشيء سوى أنهم يرثون نيرها من الأجداد والآباء، وتبقى معهم دون إرادتهم، كحالنا بالضبط. ولأكون صادقًا معك، كان هذا سببًا لتوقف محاولاتي لأن أكون واحدًا منهم، أو على شبههم، وإن كنت قد انتهيت بأن أصبحت شريكًا لها، ولهم، في كل تلك الأشياء المقلقة التي يحملونها.

قطعت استرسالي، لأخبر أبونا أنني على وشك أن أخبره قصصًا عن إستر وأهلها، لكنني سأختصرها بقدر الإمكان. والرجل لم يعترض، بل ظهرت عليه علامات من الابتهاج لسماع واحدة من حكاياتي المسلية، وعن الخواجات هذه المرة، فهو لا يسمع عنهم كثيرًا في اعترافات شعب كنيسته بالطبع.

يعود الأمر للأجداد كالعادة، يا أبونا، فجد إستر لأمها، كان رجلاً بسيطًا، ومتواضع التعليم، ولكنه كان شيوعيًا أيضًا، ومخلصًا لشيوعيته إلى أقصى حد. وهو ما تسبب له في الكثير من المشاكل، انتهت به إلى أحد معسكرات الاعتقال أثناء الحرب الكبرى. لكن الرجل كان محظوظًا، فقد خرج حيًا من المعسكر، بعد أن دفن الكثير من رفاقه وأفراد عائلته فيه. بل وخرج على ظهر دبابة سوفيتية، ولم يكن هناك ما يمكن له أن يتمناه أفضل من هذا. وبدلاً من يتوجه الجد إلى مسقط رأسه في الغرب، ذهب إلى برلين الشرقية ليستقر هناك، ليبني جنة الاشتراكية التي طالما حلم بها. أصبح الرجل، الذي التحق بالجامعة لدراسة الهندسة لاحقًا، كادرًا متوسطًا في الحزب، وبطلاً صغيرًا في حيه، يتقدم المسيرات السياسية، وتظهر صورة في المجلات المحلية، مصحوبة بنبذة

صغيرة عن قصة حياته، وبالأخص اختياره بملء إرادته للقدوم للشرق، وفي بعض الأحيان، يشار إلى قائمة باختراعاته الهندسية التي أنجزها، وهي لم تكن مبهرة بأي حال.

أما عائلة أم إستر، فكانت على النقيض في كل شيء، فهم كانوا من برلين الشرقية بالأساس، والجد، الذي يقال، بكثير من الخجل، أنه كان نازيًا متحمسًا، كان قد قُتِلَ في الأيام الأخيرة من الحرب نفسها، تاركًا لزوجته طفلتين، ومحلاً متواضعًا لبيع للزهور. إلا أن ذلك الميراث المتواضع، الذي مكن الجدة الكاثوليكية جدًا، من إعالة أطفالها الأيتام، كان نقمة عليهم جميعًا. ففي ظل النظام الجديد في الشرق، كان امتلاك دكانًا صغيرًا، كافيًا لوضع أصحابه في فئة البرجوازيين الصغار، ولتعامل الـسلطات معهم بكثير من الحذر والشك، وخاصة إن كان لهم ماضٍ مرتبط بالنازية. وبسبب تلك الوصمة، حُرِمت والدة إستر، من الدخول إلى الجامعة، ومُنِحت عملاً بدنيًا شاقًا، في مصنعٍ للأسمنت يبعد عن محل سكنها ساعتين في القطار. لكن وبفضل تلك العقوبة، التي لازمت الأم، لجزء طويل من شبابها، كُتِب لها أن تلتقي في المصنع بالرجل الذي أصبح زوجها فيما بعد.

لكن قصة الحب بين عاملة المصنع، ومديرها لم تكن أمرًا يمكن لأحد القبول به، لا أهلها ولا أهله، والأهم أن الحزب قطعًا لم يكن ليرضى بتلك العلاقة. تذهب القصة إلى أن الأم هربت من منزل عائلتها في أحد الليالي، وذهبت إلي بيت أهل حبيبها، وتوسلت هناك، المرة بعد الأخرى، بلا جدوى، فالجد، بطل الحي الصغير، أخبر ابنه بأنه

لن يسمح له أبدًا بالاقتران بابنة أعداء الشعب والفاشيين، وأن الحالة الوحيدة التي يمكن لهما فيها الزواج، هو أن تعبر دبابات الإمبريالية على جثته الهامدة.

تقهقه إستر دائمًا من نهاية القصة، التي أعادتها على مسامعي مرات كثيرة، وإن كانت في الحقيقة لا تتحمل كثيرًا من الضحك. ففي الصباح التالي، جرجرت الأم حبيبها، رغمًا عنه، وتوجهت به إلى مقر رئاسة الحزب في المقاطعة، وطرقت أبوابًا كثيرة، وبكت وتوسلت أمام رجال غلاظ، رقت قلوبهم في النهاية. كان على الأم أن تتبرأ من أهلها أمام الجميع، وتسب الفاشيين والكاثوليك والبرجوازيين الصغار، ومحلات الزهور، وأشياء أخرى كثيرة، قبل أن يُسمح لها بتتميم الزواج على مضض.

حن قلب الجد، بعد شهور قليلة، وزار العروسين، ومنحهما بركته، لكن الحزب لم يكن راضيًا جدًا عن الأمر برمته، وأبقى الأسرة الصغيرة تحت المجهر. وبسبب كل هذا، كان على إستر، أن تحمل وصمة تلك الزيجة معها، وأن تتعلم أشياءً كثيرة في طفولتها، هناك ما ينبغي أن يُقال، وهناك ما لا يجب أن يُقال، وأن هناك أخطاء جسيمة حتى ولو ارتكبها الأطفال في سنها، وأن عليها مثلاً أن تتظاهر بالحماس في مسيرات الكشافة في يوم الأول من مايو، وأن تتظاهر بالحزن في مناسبات أخرى، وألا تظهر أي مشاعر معظم الوقت، وهكذا. لكن إستر كانت طفلة كالأطفال، بالطبع، وربما كانت أسوأهم، بسبب

براءة تصديق كل شيء التي ورثتها عن جدها، الذي ظل مؤمنا باشتراكيته حتى بعد انهيار كل شيء من حوله.

ففي مرة، أحضرت إلى المدرسة، قصة مصورة، أهداها لها أقارب من الغرب كانوا قد زاروا أسرتها مرة أو مرتين، وكان انكشاف الأمر سببًا لاستدعاء والدها لجهة ما لبعض الوقت، وتوبيخها في البيت والمدرسة. وأقسى ما كان في الأمر، هو أن ناظرة المدرسة وهي توبخها، ساعتها، أخبرتها بأن الأطفال في الغرب، بائسين جدًا، ويرغمون على أكل "الخرا"، وهي صدقتها تمامًا، وأخذت الكلمة بحذافيرها، وهذا ما جعلها تشعر بالحزن والشفقة على هؤلاء الأطفال المساكين، لسنين طويلة بعدها، قبل أن تدرك سذاجتها في النهاية.

وفي واقعة تالية، أجابت على سؤال مدرستها في الصف عن اسم رئيس الجمهورية، وهي تهتف بحماس: "الرئيس كارستنز". وكانت هذه سقطة فادحة، فالمدرسة فهمت بأن إستر تشاهد محطات التلفاز الغربية، والتي يمكن التقاطها بسهولة في الشرق، وأنها معتادة على متابعتها، إلى حد أن الأمر اختلط عليها، وظنت أن رئيس ألمانيا الغربية، هو رئيسها. تم استدعاء الوالدين إلى جهة ما، لوقت أطول من المرة الأولى، وبعدها بأيام اختفى التلفاز والراديو من البيت ومعه قصص ميكي المصورة، وحل محلهما الكثير من الوجوم، والمزيد من التحذيرات والممنوعات.

ومرة أخرى، وبعدما بلغت إستر من العمر ما يكفي لتفهم الخوف بشكل كافٍ، كانت في طريق العودة من الكنيسة، عندما قابلها أحد

أبناء الجيران الأكبر سنًا، وسألها عن المكان الذي كانت فيه. ولأن جدتها، التي كانت تأخذها معها إلى هناك كل أحد، لطالما نبهت عليها ألا تفشي هذا السر، فإنها أجابت السؤال، متظاهرة بالثقة: "لم أكن في الكنيسة بالتأكيد". وكان هذا كافيًا، لاستدعاء والديها والجدة إلى نفس الجهة المجهولة، وتوقف ذهابها إلى الكنيسة، ومعه الحديث إلى أولاد الجيران.

ظهر على أبونا بعض علامات التململ، فلعل قصصي هذه المرة، لم تكن مثيرة بما يكفي، وقاطعني، ليعيد صياغة سؤاله الأول بشكل أكثر مباشرة: "أبوه يا بني، يعني هي ما بتروحش الكنيسة من ساعتها؟"

كانت الإجابة بـ"لا" مخاطرة لم أكن راغبًا في خوضها، ولهذا كنت قد لجأت لكل تلك المقدمات الطويلة. احتجت بضع ثوان لالتقاط أنفاسي، قبل أن أستكمل إجابتي مرة أخرى، فهذه كانت كما يبدو مرافعتي الأخيرة.

إستر، يا أبونا، ليست واحدة من الخواجات الذين تتخيلهم، أو كنت أتخيلهم أنا في الماضي. فكل تلك المواريث الثقيلة التي حملتها معها، وتلك التي لملمتها من طفولتها، دفعتها للخوف من براءة تصديق كل شيء، وبالأخص تلك الأشياء التي يؤمن بها الناس الآخرون. فهي قد رأيت بعينيها وسمعت من غيرها، كيف للإيمان أن يكون خطيرًا، وقاسيًا، إن اعتنقه كثير من الناس، وخاصة حين يحاولون إرغام غيرهم عليه.

في الحقيقة، لا تذهب إستر إلى الكنيسة، لكن هذا لا يعني أنها ليست مسيحية جدًا في قلبها. فمع أنها مثلي تمامًا، في أنها ترى العالم مكانًا غير آمن، وموحش، ولا تجد لنفسها مكانًا مُطمئِنًا فيه، إلا أنها وبفضل تلك البطولية التي ورثتها عن أمها أو تعلمتها من جدها الشيوعي، على عكسي تمامًا في شأن التعامل مع العالم.

فأنا كما تعرف، يا أبونا، فعلت أشياء كثيرة في حياتي، من باب الحيرة، أو إبراء الذمة من الواجب لا أكثر، أما هي فالأمر بالنسبة لها محسوم، وواضح كالشمس، علينا أن نغير العالم وأن نصارعه، ولا مفر من هذا. تركت إستر بلدها، وهي مكان مريح الآن بالطبع، وليس مريعًا كالسابق، وذهبت إلى أماكن أخرى كثيرة، واحتملت مشقات لم يكن عليها أن تواجهها بالضرورة، في سبيل بحثها عن وسيلة لجعل العالم من حولها مكانًا أفضل. ولأسباب عدة، أغلبها يرجع إلى الصدفة، وضربات القدر حسنة الطالع، مع قليل من سوء الحظ أيضًا، وجدت إستر غايتها، بعد أن التحقت بالعمل في منظمة دولية للاجئين، وتنقلت معها في أكثر من بلد منكوب، حتى وصلت أخيرًا، إلى هنا، للعمل في مكتب المنظمة في القاهرة. وهي بالطبع، تتقاضى راتبًا محترمًا وكل شيء، لكن الأمر بالنسبة لها ليس مجرد وظيفة، فهي عن حق قد نذرت حياتها، لتخفيف الآلام لمن يعانون، ولا تفكر في شيء، سوى مشاركتهم مأساتهم وأوزارها، وأما عن راتبها، فهي غالبًا ما تنتهي بتوزيع معظمه على من تعمل معهم، مع أن قواعد المؤسسة تمنعها من

فعل ذلك. وأنا واثق يا أبونا، أنك ستتفق معي بأنه لا يمكن للمرء أن يكون مسيحيًا، أكثر من هذا.

لم أكن واثقًا تمامًا في أن مبالغتي في تصوير بطولية وظيفة إستر، التي تراها هي نفسها تافهة في لحظات يأسها، كافية لإقناع أبونا. لكن الرجل فاجأني ببردة فعله، فابتسامة عريضة ظهرت على وجهه، قبل أن يعتدل في جلسته، دافعًا بكل ثقله إلى الوراء، وكأنه بلغ ما كان يبحث عنه بعد طول انتظار:

"ربنا يباركها، مصلحتك مقضية، خلاص يا بني".

ودعني أبونا، وهو يؤكد لي بأنه لا حاجة لي للحضور إليه مرة أخرى، إلا لو وددت أنا ذلك بالطبع، وأنه في خلال شهر على الأكثر، سيرسل لي لاستلام الورقة التي كنت أنتظرها منه. للحظة، كنت غير مصدق لما سمعته منه، فهل كانت كل تخيلاتي عن الصراع بيني وبين الرجل مجرد مبالغة مني، بفعل حساسيتي الشديدة تجاه أي صورة من صور السلطة، أم أن الرجل قد هزمني بالفعل، دون أن أدري. أو ربما أنا الذي انتصرت، في معركتنا، أخيرًا؟

١٤

وصلنا أنا وإستر إلى القسم مبكرين عن موعدنا بربع ساعة. كنت قد اتصلت في الليلة السابقة بياسر، لعله يقبل بالحضور معنا كما فعل في المرة الأولى. ولم أكن أتوقع أنه سيفعل، لأسباب كثيرة كان يمكن تخيُّلها، لكنه أضاف إليها سببًا آخر، كان كفيلاً بإثارة المزيد من قلقي. فبعد الزيارة الأولى، بعدة أيام، اتصل به حماه، الذي وصل إليه الأمر بطريقة لا نعرفها على وجه التحديد، ووبخه على تورطه في القضية، وعلى استخدامه للكارت الشخصي لقريبه، دون استئذان. وأخبره في النهاية، بأن عليه أن يبقى بعيدًا عن الموضوع، لأنه في غاية الخطورة، بل والأفضل أن يقطع علاقته بنا بالكامل:" دول ناس مش كويسين".

لم نحتج للانتظار، فبمجرد وصولنا للقسم، ظهر الضابط صغير السن الذي حضر إلى الشقة للمعاينة، وقادنا دون أن يوجه أي حديث لنا إلى أحد المكاتب. وفي الحال، وضع في يد إستر ملفًا كبيرًا، يحتوي على عشرات من صور المُسجلين، وطلب منها أن تدقق في الصور، وتخبره إن تعرفت على الجاني في واحدة منها. كانت الأسماء الثلاثية لأصحاب الصور، مكتوبة في نهاية كل صفحة، وبجانبها تُهمهم،

وكانت تهمة واحدة، في كل الملف، "مخالطة أجانب دون تصريح". لم أكن أعرف حتى هذا الوقت أن هناك جريمة بهذا الاسم في القانون المصري، وقفز في ذهني حقيقة أنني وبمنتهى البساطة يمكن ألا أخرج من القسم، فأنا في وضع تلبس بالجرم.

انهمكت إستر في تقليب صور الملف، بكثير من الاستمتاع، وخاصة بعد أن تعرفت على صورة شخص كان وجهه معتادًا، وصادفناه عدة مرات في مقاهي وسط البلد. أعادت إستر التقليب في الملف مرة أخرى، قبل أن تخبر الضابط بأنها لم تجد الجاني في أي من الصور. وكنت متوقعًا، أن يعرض علينا ملفات أخرى، لجرائم ربما تكون أقرب للواقعة، كالسرقة أو السطو أو غيرها. لكن الضابط كان يبدو مصممًا على نظريته، بأن الجاني، هو شخص تعرفه إستر، أي ممن يخالطون الأجانب بالضرورة، وأنا بالتالي لا زلت متهمًا في نظره على الأغلب. استرجع الضابط الملف، وطلب منا الانتظار لبضع دقائق، قبل أن يعود وبصحبته ثلاثة من المشتبه فيهم، كما وصفهم. لم يكن هناك شيء يجمع بين مظهر الرجال الثلاثة، أو يتوافق مع الأوصاف التي قالتها إستر في المحضر، فأحدهم كان طويلاً ونحيفًا جدًا، والآخر كان قصيرًا وشديد السمنة، أما الأخير فكان أصغرهم سنًا، وبدا أنه لم يتجاوز العشرين من عمرهم.

كنت قد تأكدت أن ما يحدث ليس إلا تسديدًا للخانات، بدافع الروتين والإجراءات لا أكثر، أو لعله بغرض إنهاكنا، فواضح أن الضابط قد أحضر ثلاثة من نزلاء الحجز بشكل عشوائي. لكن إستر قد أخذت

المهمة على محمل الجد، وبدأت في التفرس في هيئة الرجال المعروضين، والذين كانوا جميعهم منكسي الرؤوس كما أمرهم الضابط. استغرقت إستر في النظر وإعادة النظر، بضع دقائق، وهو ما أشعرني بكثير من التوتر، والغضب منها، فأنا متأكد أن هؤلاء الرجال لا دخل لهم بالقضية، ولا داعي لتطويل زمن مهانتهم هذه. كنت على وشك أن أطلب منها أن تحسم أمرها بخصوصهم، في اللحظة التي رفع أصغرهم سنًا رأسه، وكأنه يتأهب لقول شيء. لكن صفعة قوية من الضابط على وجه الشاب كانت كفيلة بدفعه إلى حائط، وإسكاته، بعد حشرجة مكتومة من الألم لم يستطيع منعها. قفزت إستر من مقعدها، وصرخت في الضابط، طالبة منه أن يتوقف، فهي لا تستطيع أن تتذكر هيئة الجاني، ولا تريد أن تعرف من هو، انتهى الأمر بالنسبة لها، وهمت بالخروج من المكتب.

لكن الضابط، الذي أضاءت وجهه ابتسامة، هي خليط من السخرية وشعور بالشماتة، وقف في طريقها، فاردًا إحدى ذراعيه ليسد الباب: "دخول الحمام مش زي خروجه". إلتفتت إستر إليّ، لعلها تفهم من ردة فعلي معنى ما يحدث، ولما وجدتني لا زلت جالسًا في مكاني، أدركت أنه لا سبيل للخروج، فتراجعت خطوتين، ووجهت كلامها للضابط بصوت منخفض هذه المرة: "لو سمحت، أنا عايزة اتصل بالسفارة".

قام الضابط، بصرف المشتبه بهم إلى الحجز، وأكد لإستر بأن لا حاجة للاتصال بالسفارة أو غيرها، فكل ما في الأمر أنه لا زال يحتاجنا لتقفيل المحضر طبقًا للإجراءات المتبعة.

أُقتيدت إستر بمفردها إلى غرفة أخرى خالية من الشبابيك، كان بها كرسي واحد، وبجانبها طاولة صغيرة، وبقيت فيها وحدها لبضع دقائق، قبل أن يدخل عليها رجل، في ملابس مدنية، ومعه كوبًا من الشاي، قدمه لها، وأخبرها أن عليها الانتظار. حاولت إستر أن تمسك بكوب الشاي، لكن يديها كانت ترتعش من الرعب، فملامح الرجل، الذي بقي في الغرفة معها، وشاربه الكث وصوته الحاد الذي لا يتناسب مع ملامحه الغليظة، كان يشبه كثيرًا الجاني. استطاعت إستر أن تتحكم في هلعها، بأخذ أنفاس عميقة وبطيئة واحدًا بعد الآخر، لكن فجأة قاطعها صوت ارتطام بالحائط من الغرفة المجاورة، تبعه صوت صرخة طويلة، وبعدها توالت أصوات الخبطات والنحيب، وكان هذا صوت تعرفت عليه بسهولة، فهي لم تكن لتخطيء في تمييز صوت بكائي، الذي وإن سمعته من قبل في مرات قليلة فقط ، لكنها لا تنسى. لم تدر إستر بنفسها، فقد سقطت رأسها على الطاولة، مغشيًا عليها، وظن الرجل أنها نامت، فغادر الغرفة.

أنا، لحسن الحظ، لم أكن في الغرفة المجاورة كما ظنت إستر، فقد تم اقتيادي إلى الدور العلوي من القسم، إلى مكتب رئيس المباحث. ظل الرائد نبيل محتفظًا بدماثته كلقائنا الأول، واستقبلني بالكثير من الترحاب، لكن هذا لم يكن كافيًا لتبديد علامات الانزعاج على وجهي، والتي تعمدت أن أحتفظ بها وأبالغ في إظهارها. تشكيت من الطريقة التي عاملنا بها الضابط الشاب، ومن إصراره على التشكيك في إستر، بل وتوجيه الاتهام لي أنا شخصيًا.

"هو عملها معاكوا، معلش حقك عليا أنا".

طيَّبَ الضابط خاطري، وأخبرني أن الرجل يقوم بوظيفته لا أكثر، وعليه النظر في كافة الاحتمالات، مهما بدت بعيدة وغير ممكنة، لكنه يبالغ أحيانًا في شطحات خياله، ربما بسبب تواضع خبرته، أو من فرط حماسة الشباب، والزمن كفيل بإصلاح تلك الأمور. أخرج الضابط علبة سجائره من جيبه، وعرض عليّ واحدة، بحركة بدت مفتعلة، ذكرتني بأفلام السينما، وأنا كنت ممتنًا في الحقيقة، فقد كنت أحتاج للتدخين بعد كل ما حدث. تكلم الرائد طويلاً، وسألني أسئلة كثيرة عني وعن علاقتي بإستر. وفي البداية، لم يكن واضحًا لي وجهة الحديث، لكن ما ظهر سريعًا، وبوضوح، أنه لم يكن مهتمًا بالقضية، على الإطلاق، ولا بنا، فكل ما يعنيه كان ألا تصل أخبار القضية لا للسفارة الألمانية، ولا الصحافة، أو لمستويات أعلى في وزارة الداخلية. حاولت أن أستشف من حديثنا إن كان هناك أي علاقة لذلك بموضوع الجريدة أو الصورة، أو أي شيء آخر، لكن هذا لم يكن ممكنًا. فالرجل كان، وبإلحاح شديد، يعيد أسئلته عن موعد زواجي بإستر، ولماذا لم نتزوج حتى الآن، ولما لا نفعلها ونغادر بعدها لنستمتع بحياة هادئة في ألمانيا.

اتضحت الصورة لي، فالرائد كان قد وجه لي نصيحته، بنبرة حاسمة، وبصيغة شبه رسمية، فمن الأفضل أن نتزوج ونغادر البلد، وفي أسرع ما يمكن. وأنا من جانبي، أكدت له بأنه سيسمع أخبارًا سعيدة منا في القريب العاجل، وهو ما أرضاه جدًا، "وما تنساش تعزمنا يا باشمهندس، عايزين نفرح بيك".

غادرت بعدها، مع إستر، والتي كانت بالكاد قادرة على حفظ توازنها. أخبرتها في التاكسي بما حدث باختصار، وبمجرد ما وصلنا إلى الشقة، كانت قد وصلت إلى قرار حاسم بضرورة زواجنا في الصباح التالي. كانت تشعر بما يكفي من الذنب تجاهي، فهي من أصر على الذهاب إلى القسم، وكان هذا خطأ كبيرًا كما اتضح لاحقًا، وموضوع الصورة والجريدة ربما بسببها أيضًا، والأمر ليس أكثر من ورقة سنوقعها، وستتيح لي الخروج من البلد. تظاهرت بالتردد، وصارحتها بأنني أشعر أن علاقتنا قد انتهت منذ حادثة الاعتداء، فأنا لم ألمسها من حينها، وهي كانت تحرص ألا تلمسني أيضًا. لكنها أصرت، فهي مستعدة لعقد الزواج، فقط لأجل خاطري ولضمان سلامتي على الأقل، أما علاقتنا فهذا موضوع آخر يمكن تأجيل الحديث عنه، حين تسمح لنا الظروف في المستقبل القريب. هكذا اتخذنا قرارًا مثل هذا، بكل تلك التفاهة والعجلة والاستسلام.

سرعان ما اتضح لنا أن إجراءات الزواج ليست بالبساطة التي تصورناها. فتوثيق الزواج بأجنبي أو أجنبية، يتم في وزارة العدل، ويتطلب عددًا من الوثائق والأوراق الرسمية، أهمها موافقة من سفارة البلد الأجنبية، والتي ستتطلب، في حالتنا، استصدار وثائق رسمية من ألمانيا ومن مصر، يتم ترجمتها من الألمانية إلى العربية، ومن العربية إلى الألمانية، ويتم اعتمادها بعد ذلك من وزارتي الخارجية لكلا البلدين بالإضافة إلى أختام وزارات أخرى. كان الأمر محبطًا للوهلة الأولى، لكن كلانا شعر ببعض الإطراء، فأمر زواجنا يبدو مهمًا جدًا، على

الأقل لدى وزارات عدة في بلدين، ستكون طرفًا فيه. فزيجتنا ربما ليست شأنًا تافهًا جدًا كما ظننا.

استغرق استخراج جميع الأوراق، أقل من ثلاثة أشهر، خلالها قامت إستر بتقديم استقالتها من العمل، وانتقلت إلى العيش في بيت أسرتي، وأنا كنت موقوفًا عن العمل، بأجر كامل، بسبب تحقيق الشؤون القانونية، فركزت كل جهودي على الجري من وزارة إلى أخرى للانتهاء من الأوراق. ولم يكن هناك شيء آخر يشغلنا في الحقيقة، فعلاقتي بعلاء توترت بعد معرفته بقرار الزواج، فهو شعر بالخيانة من جانبي، فأنا الآن أهرب تاركًا إياه وحده، ولم أعد معنيًا بمصيره كما قال. وياسر كان قد توقف عن الرد على مكالمتي منذ اتصالنا الأخير، وأنا افترضت أن علاقتنا انتهت ورضيت بهذا، فأنا كنت متفهمًا أنه لا يريد أن تتأثر زيجته أو أعماله بشبهة علاقته بنا. كان كل هذا كفيلاً بالتأكيد لي على صواب قراري، فلم يبقَ لي شيئًا في البلد للندم على تركه خلفي، خاصة وأن رئيس المباحث حرص على الاتصال بي كل حين وآخر، وإحضاري أحيانًا للقسم، للتأكد من قرب موعد مغادرتنا.

وقبل التاريخ الذي اتفقت عليه مع إستر لإجراء مراسم الزواج بيوم واحد، ذهبت بمفردي إلى مكتب وزارة العدل المختص بتسجيل زيجات الأجانب، فقط للتأكد مرة أخرى من استيفائي وإستر للمستندات المطلوبة. فخبرة طويلة مع البيروقراطية وشراكها، كان لها أن تستدعي أرقًا لا سبيل لتهدئته حتى مع تأكيدات الموظفين مرة تلو

الأخرى بأن كله تمام. نظر الموظف سريعًا على الملف المكتظ بالمستندات، وطمأنني: "مبروك يا أستاذ، تيجي تتجوز بكره لو عايز". وبعد أن شكرته واستدرت للانصراف، حدث ما كنت أخشاه.

ناداني الموظف مرة أخري، مستدركًا خطئه: "أنت مسيحي صحيح، فين موافقة الكنيسة؟" شرحت للموظف أني وإستر اتفقنا على تسجيل الزواج مدنيًا، وأن لا نية لنا لعقد زواج كنسي في الوقت الحالي. لكن الموظف الذي لم يفقد صبره بسرعة كعادة الموظفين، أخبرني باستفاضة بأن "شهادة خلو الموانع" الكنسية ليست من متطلبات الكنيسة أو الزواج الكنسي، بل استيفاء للقانون المصري، ومن اشتراطات الدولة. دفعت نظرة الاندهاش المزوجة بخيبة الأمل على وجهي، موظفنا لضرب مثل لتقريب الفكرة، فالقسيس مثل شيخ الحارة في القانون، وكما يضمن شيخ الحارة أهالي الحي في قسم البوليس، فالقسيس يضمن الأقباط لدى الدولة. نصحني الموظف بأن أذهب للكنيسة الأقرب لمحل سكني، وهم سيقومون باللازم.

كانت هذه بداية لمعاناة امتدت لبضعة أسابيع، توجهت للكنيسة الأرثوذكسية الأقرب أولاً، والثانية في القرب، والأبعد قليلاً وهكذا كانت الإجابة الدائمة، أن محل سكني غير تابع لهم. أخيرًا، صارحني أحد القساوسة بالحقيقة، وأخبرني أن المشكلة في أنني لا أتردد على الكنيسة بانتظام، وغير معروف لقساوستها بشكل شخصي، وأن القس عند توقيعه على الشهادة المطلوبة لا يتصرف كرجل دين، بل بحكم كونه موظفًا لدي الدولة، مما يحتم عليه أن يكون متأكدًا تمامًا من

استيفاء شروط الزواج، وهو أمر لا يستطيع أن يستوثق منه طالما أنه لا يعرفني شخصيًا. أنهى القس رده بأن الدولة من ناحيتها لا تتهاون مع الأمر، وأن عددًا من القساوسة عوقبوا بأحكام بالسجن مؤخرًا، بعدما اتضح تصريحهم بالزواج لغير المستوفين للشروط.

كنت لا زلت مطمئنًا إلى أن موضوع موافقة الكنيسة، يمكن حله بسهولة، وكان ما يغيظني حقًا أنني أحتاجها بالأساس، لكني كنت مخطئًا للأسف. حاولت أمي اللجوء إلى مطرانية كنيستها الكاثوليكية، وكان الرد سريعًا وحازمًا، فمعموديتي ليست كاثوليكية، وليس للمطرانية شأن بي، غير أن العائلة قد توقفت علاقتها بالطائفة من زمن طويل، فلماذا تذكرناها الآن! كانت فرصتي الأخيرة، هي الرجوع إلى واحدة من الكنائس البروتستانتية الكثيرة التي كنت أتردد عليها في الماضي، لكن مقابلتي لاثنين من قساوستها لم تكن أفضل حالاً، فسمعة أنني ملحد ومثير للمشاكل، التي اكتسبتها من زمن طويل، كانت لا تزال تطاردني، وأدعى الرجلان أنهما لا يتذكراني على الإطلاق.

كنت على وشك الاستسلام، لولا أن إستر توصلت عبر علاقاتها في عملها السابق إلى محام متخصص بقضايا الأحوال المدنية للأقباط. وكان خلاصة اللقاء الودي والمطول، الذي تم ترتيبه على عجل، بيني وبينه، أن هناك منطقة رمادية بالقانون، فبالرغم من أن الدولة تشترط تصريح الكنيسة بالزواج، إلا أنها لا تستطيع إرغامها على منح هذا التصريح حال امتناعها، ولا حتى مطالبتها بإبداء أسباب الرفض، وبالتالي لا توجد طريقة واضحة لنظر قضايا راغبي الزواج ضد الكنيسة

أمام المحاكم، وحتى وفي الحالات القليلة التي تصدر المحاكم فيها قرارات متعلقة بالأمر، فإن الكنيسة تمتنع عن التنفيذ. نصحني الرجل بأن السبيل الوحيد المتاح أمامي هو اللجوء للكنيسة نفسها، بتقديم شكوى للمجلس الإكليريكي الذي ينظر في المسائل من هذا النوع.

خرجت من مكتب المحامي، وقد أدركت أن الأمر وصل إلى طريق مسدود، وبدأت في تخيُّل نفسي في باحةٍ واسعة مرصوفة بالرخام، يجلس في صدرها دائرة من الكرادلة، يشبهون جميعهًا يوسف وهبي، في مسرحية "راسبوتين"، وأمام منصتهم العالية، وقفت أدافع عن حقي بتكوين أسرة، وأن يكون لي شريكة أحبها، وأولاد من صلبي، ممسكًا بيدي نسخة من الكتاب المقدس، مستشهدًا بآياته ومدافعًا بحججي، وكأنني أحد الهراطقة وهو يدافع عن بدعته أمام محكمة التفتيش. وكنت أعرف أن خيالاتي كاذبة، ومبالغ فيها، ففرضي كان الهرب لا أكثر. اختتمت المشهد في رأسي، بنهايةٍ تراجيدية، فحكمٌ قد صدر بحرقي، قرأه كبير الكرادلة بصوت جهوري: "هلاك الجسد، لخلاص الروح"، وهذا كان كفيلاً بإضحاكي قليلاً.

لكن زيارة الكاتدرائية في اليوم التالي، كانت قد ألجمت خيالي، فالموظف الذي كان يجلس في كشك صغير، بمدخل أحد مباني الكاتدرائية، قد صرفني بلطف، بعد أن أخبرني أنه لا طائل من تقديم شكوى، فالشكاوى لا تُحسَم إلا بعد عدة سنوات، إن حُسِمت، وسكرتير المجلس الإكليركي، في كاليفورنيا للعلاج منذ عدة أسابيع، وربما لا يعود، وكافة القضايا مُعطلة، والأهم أنه يستطيع من خبرته

الطويلة أن يخبرني بالقرار دون انتظار سنوات. كان القرار المتوقع، هو أن يعين المجلس لي أب للاعتراف، لمتابعتي بشكل دوري، ومن جهتي عليّ أن أحضر الكنيسة بانتظام، وأداوم على جلسات الاعتراف أمامه بشكل أسبوعي، وربما يستلزم الأمر ستة شهور أو عامان حتى يقوم القس بمنحي صك الزواج في النهاية.

انزويت في غرفتي بعدها ليومين، وكان ما يعذبني، ليس أن كل سبل الفرار موصدة، بقدر شعوري بالعجز والضآلة أمام كل شيء، فحتى قرار شخصي وحميمي إلى أقصى حد كالزواج، أقدمت عليه لمجرد الهرب، تحول هو نفسه إلى شرك بيروقراطي. فأنا لم أتخيل قط أنني كنت فاقدًا للأهلية إلى هذا الحد أمام القانون، لمجرد أنني قبطي، أو أن الدولة سلمتنا رهينة في يد الكنيسة ورجالها بلا ضمانة على الإطلاق، وبكل هذه البساطة، وكأننا لسنا من مواطنيها، وبلا حقوق لديها أو لدى غيرها.

ومن فرط الغيظ، كنت على وشك أن أخبر إستر بأنها يمكنها الرحيل إذا أرادت، وليس عليها أن تشعر بالمسؤولية تجاهي بعد الآن، لولا أن الست الوالدة، بعض محاولات دؤوبة، كانت قد نجحت في إقناع أحد قساوسة كنيسة الحي بمقابلتي للنظر في أمري. وكان اسم الرجل هو أبونا أنطونيوس، وهكذا بدأت لقاءاتي به.

١٥

كان أول من زارني، بعد رجوعي إلى البيت، هو أبونا. اتصل قبلها بيومين، وطلبَ لقائي في الساعة الثالثة من يوم الأربعاء، نفس موعد لقاءاتنا قبل أكثر من عام. وحينها أخبرته بأنني يمكن أن أحضر إلى مكتبه، كما في السابق، لكنه أصر على تحمل مشقة أن يأتي إليّ بنفسه، فأنا أحتاج إلى بعض الراحة بعد كل ما تعرضت له، كما قال. كنت ممتنًا للفتة أبونا العطوفة، فكأن شيئًا لم يتغير، نفس اليوم، ونفس الساعة، والعالم يمضي في طريقه كما كان.

وصل أبونا في موعده، وحين فتحت له الباب، عاجلني بواحدة من نكاته الوقورة، التي لا تضحك سوى لأنها تصدر منه.

"في ميعادك كالعادة يا بشمهندس".

فتح الرجل ذراعيه، وضمني إلى صدره، وطفق في تقبيل رأسي مرة بعد أخرى، بشكل أشعرني ببعض الحرج، فلم أكن معتادًا منه على هذا القدر من العواطف. كان صوت أبونا مهتزًا، حين طلب مني أن نتوجه إلى غرفتي حتى نستطيع الكلام على راحتنا.

بادر أبونا بالجلوس على الكرسي الوحيد في الغرفة، وطلب مني أن أجلس قبالته على حافة السرير، أو التمدد عليه إذا أردت. وبعدها مباشرة، سألني عما حدث. هو يعرف كل شيء بالطبع، فوالدتي كانت تزوده بالأخبار أولاً بأول في فترة غيابي، لكنه ربما أراد أن يسمع مني كل التفاصيل المؤلمة، لعل قسوتها تكفر عن شعوره بالذنب تجاهي، فهو غالبًا هنا ليعاقب نفسه لا أكثر. فلو كان أعطاني شهادة "خلو الموانع" من البداية، فلربما كنت قد أفلت، وما وقع لي ما وقع. لم أكن متحمسًا لتعذيب الرجل المسن، ولا للذة رواية الحكايات التي فقدت بريقها لدي، كما فقدت أشياء أخرى كثيرة معناها في الشهور الماضية، لذا قررت أن اختصر بقدر الإمكان، والاكتفاء بالخطوط العريضة للأحداث.

كان لدي تحقيق في الشؤون القانونية في اليوم التالي لآخر لقاء لنا، والذي وعدتني فيه يا أبونا، بالشهادة. وأنا لم أعطي للموضوع كثيرًا من الأهمية، فقط أردت إغلاق كل الملفات المفتوحة، قبل تتميم الزواج، والرحيل عن البلد، وكان التحقيق واحدًا منها، وربما أقلها وزنًا. قبلها كانت الشؤون القانونية قد حددت لي موعدين للتحقيق، وفي المرتين هاتفني أحد الموظفين، ليخبرني بأن الموعد قد تم تأجيله، دون إبداء سبب لذلك. وحينها افترضت، أن الأمر لم يكن من الأهمية بالنسبة لهم، فلم يستدعي كثيرًا من العجلة.

المهم، في الموعد المحدد، وصلت، إلى مكتب رئيس الشؤون القانونية، الذي تولى التحقيق بنفسه. وكان هذا سببًا إضافيًا لتطميني، فالأستاذ عبد الحكيم، كان صديقًا مقربًا لوالدي، ولطالما زارنا في البيت

في طفولتي. وهو لم يحاول التظاهر بغير ذلك، على الإطلاق، فبمجرد دخولي إلى مكتبه، قام من على كرسيه وعانقني، ولحق ذلك بمزحة، ترتكن إلى حقيقة أن والدي كان كثير الغياب ومداومًا على المثول للتحقيق في الشؤون القانونية: "يا أهلا يا أهلا، من شابه أباه فما ظلم".

وبعد السلامات والتحيات، التي أخذت من الوقت أكثر من اللازم، أخبرني الأستاذ عبد الحكيم بأنه ليس لديه أدنى شك في استقامة أخلاقي وأمانتي، فهو يعرفني كما يعرف أحد أبنائه، إلا أنه مضطر للقيام بمهام وظيفته. وبشكل غير رسمي، أخبرني هامسًا، بأن أمر التحقيق وفتحه، ليست إلا مُناوشة بين رئيس مجلس الإدارة، المقرب من وزير الثقافة، وبين رئيس الإدارة المركزية، اللواء، الذي نال منصب وكيل وزارة المؤسسة، كمكافأة نهاية خدمته في الجيش. وهو صارحني بأنه لا يعرف على وجه التحديد، أين تقع قضيتي في معركة النفوذ تلك، وما هي المصلحة من توريطي فيها، لكنها بالتأكيد متعلقة بالسيطرة على الإدارة الهندسية، بشكل ما. وفي نهاية حديثه الهامس، شدد الأستاذ عبد الحكيم على أن الأمر جدي جدًا، وأن عليّ أن أكون حريصًا فيما سأقوله ردًا على الأسئلة الذي سيبدأ في توجيهها لي في الحال.

لم أستطع منع نفسي من الضحك، حين واجهني الرجل بالاتهامات، وهو ما أزعجه بعض الشيء. فكل ما قدمه الأستاذ عبد الحكيم، هو إيصال لصرف نصف دستة من المصابيح الكهربائية العادية، موقعًا باسمي. ولم يكن من الصعب تصور ما حدث، فعبد

العظيم، وأثناء فترة غيابي في جزيرة المانجو، ربما طمع في استغلال واحد من الإيصالات التي تركتها له موقعة على بياض. ولعل موظف المخازن، لسبب ما، تشكك في الأمر، فسأل عن الغرض من صرف اللمبات، وأماكن تركيبها، وهو غالبًا ما عجز عبد العظيم عن تفسيره، بشكل مقنع، وهكذا افتضح الأمر.

"ده تمنهم ما يعديش عشرين جنيه، يا أستاذ عبد الحكيم، كل ده عشان عشرين جنيه".

لم يعر الرجل اعتراضي أي اهتمام، وسألني، بصوت تحمل نبرته الكثير من الحزم، عن إن كان يمكنني إثبات الغرض من طلب الصرف، ووجهته. ترددت للحظة، قبل أن أدرك أن الأمر جاد بالفعل، فأنا لا يمكنني الادعاء بأن هذا ليس توقيعي. ولو ادعيت بأن الغرض كان استبدال بعض اللمبات التالفة في المقر الرئيسي أو أحد المقرات الفرعية، فعليّ تقديم نسخة من الإخطار الذي أرسله مسؤوليها إلى الإدارة الهندسية. والأهم أنني لم أكن على دراية بما قاله عبد العظيم، بخصوص الأمر كله.

لم يكن الأمر معضلة عويصة كما يبدو، فقد توصلت في ظرف لحظات إلى مخرج، لا يتطلب سوى كذبة صغيرة، لا تحتاج إثباتًا، ولا تحمل ضررًا لأحد. بررت الأمر للأستاذ عبد الحكيم، بأن تلف اللمبات في أفرع المؤسسة الكثيرة، حدث كثير الوقوع، وتصلنا إخطارات وطلبات لاستبدال واحدة منها أو أكثر مرتين في الأسبوع على الأقل،

فمن باب اختصار الإجراءات، وتوفير الوقت، قررت أن نحتفظ بعدد من المصابيح الكهربائية في المكتب، ليمكن تركيبها، عند الحاجة، دون عطلة التوقيعات وإجراءات الصرف من المخازن وغيرها، في كل مرة.

لم يبدو على وجه الأستاذ عبد الحكيم، الاقتناع بما قلته، إلا أن ملامحه العابثة ظهر عليها قليل من الارتياح. لم يكن هناك المزيد من الأسئلة، ختم الرجل التحقيق، وطلب من التوقيع على أقوالي. وكنت متوقعًا، أنه سيزودني بنسخة من التحقيق، لكن بدلاً من هذا، قفز بشكل مفاجئ من كرسيه، ودار حول مكتبه بخطوات مهرولة، وانحنى لمعانقتي. وأنا افترضت أن هذه لفتة منه لصرفي، ولذا استأذنت منه، وهممت بالخروج.

"وبعدين حصل إيه يا ابني؟ "

لم يبدو سؤال أبونا بدافع العجلة أو الفضول هذه المرة، بل لعله كان للتغطية على الاضطراب الذي أصابه، وكان واضحًا عليه، في اللحظة التي ذكرت فيها عناق الأستاذ عبد الحكيم لي.

حدث كل شيء بسرعة، بعد هذا يا أبونا، فبمجرد أن خطوت بقدمي إلى خارج المكتب، ظهر أمامي رجلان، كان أحدهما يرتدي زي الشرطة. ودون أي مقدمات، أمسك أحدهما بكتفي، وقام الآخر بوضع الكلابشات في يدي، ومن هنا تم اقتيادي لقسم الشرطة. كان الأمر كله

مرتبًا كما اتضح لاحقًا، ولم يكن استدعائي للتحقيق سوى تحصيل حاصل، أو تقفيل للإجراءات لا أكثر. فالمؤسسة كانت قد تقدمت ببلاغ بالفعل، إلى النيابة العامة، تتهمني فيه بالتبديد والاختلاس، حتى قبل مواجهتي بالاتهامات والتحقيق معي أولاً كما هو متبع، وكانت هذه الثغرة التي أفادتني لاحقًا.

كانت العجلة التي تمت بها الأمور، مثيرة للشك بالفعل، فلم أقضِ في القسم سوى ساعتين، أو ربما أقل، قبل أن يتم ترحيلي إلى النيابة. وهناك وجدت والدتي في انتظاري، مع أحد المحامين، فالأستاذ عبد الحكيم، كان قد هاتفها بعد خروجي مباشرة من مكتبه، بل ورتب على وجه السرعة حضور محام من زملائه معها. إلا أن المحامي لم تتح له فرصة أن يقوم بالكثير، فوكيل النيابة اكتفى بعرض نسخة من أقوالي في تحقيق الشؤون القانونية، وسألني إن كان هناك ما أريد أن أضيفه، وأنا هززت كتفي بالنفي، في استسلام. استغرق الأمر كله خمس دقائق على الأكثر، وهذا كان وقتًا طويلاً، مقارنة بالوقت الذي استغرقته المحكمة لاحقًا للنظر في القضية. فكل ما سمعته وأنا في القفص الذي كان مزدحمًا على آخره بمتهمين آخرين، هو صوت القاضي وهو يقرأ سلسلة طويلة من أرقام القضايا، وأسماء المتهمين، موزعًا قرارات التأجيل والسجن والبراءة، دون حتى أن يلتقط أنفاسه، بين رقم قضية وآخر. وفي الحقيقة، وبسبب ضوضاء الحضور في القاعة، لم أستطع تبين ما كان يقوله القاضي بوضوح، ولم أعرف ما حكم عليّ به، سوى بعد ترحيلي من المحكمة، ووصولي لمديرية الأمن. كانت ثلاثة سنوات من السجن، مع الشغل والنفاذ.

ما حدث بعد ذلك لم يكن مهمًا على الإطلاق، مجرد إجراءات. فالمحامي قدم طلبًا لاستئناف الحكم، وتطلب الأمر تسعة أشهر، قبل أن أمثل أمام المحكمة مرة أخرى، وخلال تلك الفترة، لم أقضِ في السجن سوى بضعة أسابيع، فبفضل مبلغ كان يحوله والد إستر لوالدتي شهريًا، منذ أن بدأت القضية، ووساطة بعض من معارف ياسر، قضيت معظم فترة الحبس في حجز المديرية، حيث حظيت بمعاملة جيدة نسبيًا. وفي النهاية، وبعد أن دفع المحامي ببطلان الإجراءات، معللاً ذلك بتقديم المؤسسة لبلاغ إلى النيابة دون التحقيق معي أولاً، فإن القاضي الذي لم يظهر عليه أنه كان منصتًا إلى مرافعة الدفاع، قضى بتخفيف الحكم إلى سنة واحدة، كنت قد قضيتها بالفعل، أثناء نظر القضية والاستئناف، ولذا تم الإفراج عني بعدها، بأيام قليلة، وخرجت أول إمبارح.

بدا على أبونا أن لديه الكثير من الأسئلة، إلا أنه لجمها، ليعفيني من مشقة الكلام، فصوتي كان قد ظهر عليه الإجهاد في النصف الثاني من الحكاية. وقبل أن يودعني، ببركته الرسولية، اقترح الرجل عليّ بعضًا من العروض السخية التي لم أكن أتوقعها. فهو سألني إن كنت أحتاج لسلفة مالية منه، أو خلوة في الدير أو في واحد من بيوت الكنيسة في الإسكندرية، يمكنه هو التوسط لتدبيرها. وبعدها اقترح عليّ أنه وبعد أن آخذ كفايتي من الراحة، يمكنني أن أقوم ببعض الأعمال مدفوعة الأجر، في الكنيسة، وكلها أعمال خفيفة، وربما تكون مناسبة لي جدًا. وأنا وعدته، بأنني سأفكر في الأمر، وسأرد عليه قريبًا.

في الأيام القليلة اللاحقة، تقاطر الضيوف. جاء علاء أولاً، ولم تدم زيارته طويلاً، فالجفوة التي حدثت بيننا بعد قرار الزواج، لم يكن من الممكن تجاوزها بسهولة. وحضر بعدها عدد من الأقارب، ومعارف لوالدتي من الكنيسة، وكانت الزيارات في مجملها من باب تقضية الواجب لا أكثر. أما ياسر، فلم يظهر سوى متأخرًا، كالعادة، فهو كان مشغولاً بعمله جدًا كما قال لي معتذرًا. وليعوضني عن تأخيره، قضى معي نهارًا كاملاً، لم يفسده سوى أنه أمضى معظمه في محاولة دفعي للتخمين معه في ملابسات حبسي، المثيرة للشكوك، وإن كان لها علاقة بموضوع الجريدة أو ما حدث لإستر. وأنا لم أكن مهتمًا حتى بمقاومة إلحاحه، فقد توقفت عن التفكير في تلك الأمور منذ فترة طويلة، فما جدوى معرفة الحقيقة الآن، أو في أي وقت. وأنا لم أكن حتى غاضبًا، فكل ما كان يتملكني هو شعور خفيف بخيبة الأمل. فالسجن لم يكن أسوء كوابيسي، فهو كان احتمالاً قائمًا طوال الوقت، إلا أن المُهين فيه هو أن يكون بسبب تلك التهمة التافهة، لا لأسباب أخرى كثيرة، ومحتملة، كانت تحمل قدرًا من الكرامة على الأقل، إن لم تكن مدعاة للفخر. استسلم ياسر في نهاية جلستنا، وإن ظهر عليه بعض من عدم الرضا، وهو يودعني، ملقيًا في وجهي بخبر، كان قد حجبه عني طوال القعدة، متعمدًا، ربما من باب الانتقام من رفضي لمجاراته في أسئلته:

"كنت هنسى والله، أبو إستر اتصل وقال إنه جاي القاهرة بعد أسبوع عشان يشوفك".

كان هذا الخبر صادمًا فعلاً وكافيًا لزعزعة تلك الطمأنينة التي وجدتها في لامبالاتي تجاه كل شيء. فلماذا يكلف الرجل نفسه مشقة القدوم من برلين لمجرد زيارتي؟ فإستر بعد جلسة الحكم الأولى، والتي منعها أمن المحكمة من حضورها، دون إبداء أسباب، حزمت حقائبها ورجعت إلى برلين. ومن ساعتها انقطعت أخبارها تمامًا، وإن ظل والدها على اتصال بياسر لمتابعة تطورات قضيتي، وتحويل بعض النقود إلى والدتي عن طريقه. وكل ما وصل إليّ من بعض الأصدقاء المشتركين، أنها ليست في حالة نفسية جيدة، وأنه من الأفضل لها ولي، ألا أحاول الاتصال بها. وكان هناك رسالة ضمنية في كل هذا، أن علاقتنا قد انتهت، ولأسباب لم أكن مهتمًا بمعرفتها في الحقيقة.

لكن الفضول الذي أثاره خبر الزيارة، وأعاد لي بعضًا من الحياة، كان مؤلمًا. فهو قد أصابني ببعض الأمل، فربما تعود الأمور بيني وبين إستر إلى مجاريها. وكذلك أثار في نفسي كثيرًا من الجزع، فربما أصابها مكروه شديد، وهو في طريقه لتبليغي بالفاجعة وجهًا لوجه. والأمل لمن هم في وضعي هذا ليس شيئًا مفرحًا على الإطلاق، وربما وطأته كانت أقسى من جزعي. تبدد كل هذا مع وصول الرجل، فهو لم يكن يحمل معه إجابات لأي شيء، بل وعلى العكس كان ينتظر إجابة مني على سؤال كان يعذبه، وهو سبب زيارته الوحيد.

حضر أبو إستر، بعد أسبوع بالفعل، وكان في صحبته ياسر، الذي تركنا بعد دقائق قليلة، ووعد بأن يعود بعد ساعتين، لتوصيله

للمطار. لم يكن أمامنا كثير من الوقت، فالرجل وصل في الليلة السابقة، وطائرة العودة بعد عدة ساعات.

بدأ الرجل، الذي ظهرت عليه علامات الشيخوخة وكأنه أكبر من عمره بعشرين عامًا، بإخباري بأن إستر منذ عودتها إلي بيت العائلة في برلين، وهي تقضى معظم الوقت في غرفتها، التي لم تغادرها سوى مرات قليلة في العام الماضي كله، وأن كل محاولتهم لدفعها للكلام أو تشجيعها على الانخراط في أي نوع من النشاط كانت بلا جدوى. وباستثناء المرة الوحيدة التي شاركت فيها العائلة وجبة عيد القيامة مع بعض الأقارب، فإنه لا يراها سوى في بعض أوقات متأخرة من الليل، أو قبيل الفجر بقليل، حين تتسلل خارجة من غرفتها، وتصعد للطابق العلوي من البيت، وتنهمك في السير في دوائر حول نفسها، وهي تتمتم بكلام لا يستطيع تبينه. وفي المرات التي اكتشفت فيها وجوده، أو غيره من أفراد الأسرة، أثناء تجوالها الليلي، كانت تهرول، راجعة إلى غرفتها، وتغلق الباب من الداخل.

وهو ظن أن الأمر كان بفعل صدمة سجني، وأنها تحتاج بعضًا من الوقت، لتستعيد توازنها، لكن هذا لم يحدث، بل كانت حالتها تسوء أكثر مع الوقت، وهو ما دفعه للتشكك في فرضيته. فحتمًا هناك شئ لا يعلم به قد حدث لها. وقبل شهرين، نجح الرجل في إجبار ابنته على الكلام. وما تفوهت به كان هذيًا بكل معنى الكلمة، فهي فقدت عقلها تمامًا، كما أخبرني. فما قالته له، مع كثير من الدموع، هو أن الأمر لا يتعلق بما حدث لي، بل بما حدث لمايكل. فبعد أن ظن الجميع أنه قد

مات، ظهر بعدها بيومين بلا خدش واحد، فالجثة التي تعرفت عليها زوجته لم تكن له، وهو كان محتجزًا مع غيره من المعتصمين الناجين، لعدة أيام، قبل أن يتم الإفراج عنه في النهاية. كانت تلك أحداث مبهجة بالطبع، لكن إستر لم تستطع استيعابها، ولا تحمُّل كل تلك التقلبات، فكيف للحياة أن تكون عبثية إلى هذا الحد كالموت تمامًا؟ وما كل هذا العجز الذي كانت تظنه قرينًا بنا أمام الموت وحده، ليصدمها أننا نواجهه أمام الحياة أيضًا؟ أهكذا يموت الناس، ويعودون إلى الحياة بكل تلك التفاهة؟ كان سجني هو الضربة الأخيرة التي قضت على آخر ما تبقى لها من قدرة على الاحتمال.

كنت على وشك أن أخبر الرجل، الذي شعرت تجاهه بكثير من الشفقة، بأنها لم تكن تتكلم عن مايكل، بل عن موتها هي وإفلاتها منه، فمن الواضح أن إستر لا زالت تخفى عن أسرتها حادثة الاعتداء التي تعرضت لها. لكن الوالد لم يعطني فرصة لذلك، وبدأ في التوسل طالبًا أن أخبره بما حدث لها، فهو أب، ولا يحتمل قلبه أن يرى ابنته وهي تموت ببطء أمام عينيه يومًا بعد الآخر، وكل ما يريده مني هو أن يعرف الحقيقة.

لم أفهم لماذا قفز ذهني إلى شيء آخر تمامًا، فوسط كل ما كان يحدث لنا أنا وأستر، لم تتح لي فرصة لأن أعرف منها قرار والدها النهائي، بخصوص الاطلاع على ملفه لدى "الشتازي" من عدمه. وبجلافةٍ لا أدرى من أين جاءتني، قاطعت توسلات الرجل بخصوص ابنته، لأسأله إن كان قد قرر مواجهة مشقة معرفة الحقيقة بشأن ماضيه،

أم اختار أن تظل ملفاتها مغلقة إلى الأبد. وكان سؤالي بدافع الفضول لا أكثر، لكن الرجل ظهر أنه قد فهم غرضي، على نحو آخر. فبعد أن أجابني، بصوت مرتعش، بأنه طلب من السلطات تدمير ملفه، حتى لا تراوده في المستقبل رغبة في الاطلاع عليه، مرة أخرى، انتفض من مقعده، وغادر الغرفة. وفيما كنت أهرول خلفه، محاولاً إثنائه عن الرحيل، أو حتى الانتظار، حتى يعود ياسر لتوصيله، استدار الرجل، وقال لي جملته الأخيرة، قبل أن يخرج من باب البيت: "معك حق، لا جدوى من معرفة الحقيقة الآن".

١٦

مرت على تلك الأحداث جميعها أحد عشر عامًا، تبدلت فيها كثير من الأمور في الظاهر، ولم يتغير حقًا سوى القليل. فبعد محاولات كثيرة فاشلة لطلب اللجوء، تحقق الحلم أخيرًا بالانتقال إلى الغرب، أصابت الهجرة العشوائية مايكل، وانتقل هو ومريم والأولاد إلى ميتشجان، حيث يقيم أحد أقاربها. وكان الأمر ضربة خالصة من ضربات القدر، لا مجال معها للتساؤل عن معناه، ولا مبرر عناده في الماضي. انقطعت أخبار مايكل قبل هذا بكثير، فمنذ عودته المُفاجِئة إلى الحياة، قرر قطع علاقاته بكل من يعرفهم من المصريين، ولا أحد يستطيع لومه على هذا بالطبع. في البداية، لم تكن أمريكا عطوفة على الوافدين الجدد، فمايكل لم ينجح سوى في الحصول على وظائف متواضعة، كعامل للنظافة لبعض الوقت، وبعدها كحارس أمن في أحد المصانع، وربما من باب اليأس، أو كنوع من الانتقام، قرر التطوع في الجيش الأمريكي، ليعمل مترجمًا لقوات المارينز في العراق. لم تكن مريم راضية عن قراره، ولم يستغرق الأمر كثيرًا من الوقت، حتى انتهت الزيجة بالطلاق، للأسف.

تعافت إستر، إلى حدٍ كبير، وحصلت على وظيفة، لثلاثة أيام في الأسبوع، في حضانة للأطفال من الصم والبكم، في الحي التي تسكن فيه في برلين، ولا زالت تعيش مع والديها هناك. وهي كانت قد دخلت في علاقة مع رجل بولندي، لم تدم طويلا، ولم تجرب حظوظها في شأن العلاقات من حينها. وإن داومت على الاتصال بشريف، مرتين في العام، لتهنئته في العيدين، وكانت مكالمات مقتضبة، لم تتطرق إلى الماضي أو أي شيء آخر في الحقيقة.

أما شريف، فبعد أن وجد صعوبة في الحصول على وظيفة مناسبة، بفضل سجله الجنائي، فقد قَبِل بعرض أبونا أنطونيوس بالعمل في الكنيسة. وهو لم يكن له وظيفة محددة، فأحيانًا ما كان يُطلب منه الوقوف في مكتبتها أيام الجمع والآحاد، ليبيع بعض الأيقونات والكتب الدينية، وأحيانًا أخرى، كان يساعد في حسابات التبرعات التي تأتي لصالح أخوة الرب، ويعاون الكهنة في توزيعها على الأسر المحتاجة. وفي واقعة واحدة، لم تتكرر، أعاره أبونا للإشراف، على بعض من الأعمال الإنشائية في إحدى الكنائس في شبرا. وفي الأيام الأولى من الثورة، طلب منه كهنة الكنيسة المبيت فيها مع شابين آخرين صغيرا السن، بغرض حمايتها، بعد أن اختفى عساكر الداخلية الذين كانوا يحرسونها. وهو كان متشككًا في جدوى وجوده أو غيره هناك، إلا أن أبونا أنطونيوس أصر على توليه المهمة بحجة أنه يفهم في السياسة أكثر من غيره، وسيعرف كيف يتصرف بلباقة وحكمة في الحالات الطارئة. ولم يحدث في الأيام العشرة التي بات فيها شريف في الكنيسة ما يستدعي

الذكر، سوى أنه في إحدى الليالي، قرع بعض شباب المنطقة المسلمين بوابة الكنيسة المعدنية، وطمئنوا من في داخلها بأنهم ساهرين على حراسة المنطقة، وأن الكنيسة لن تتعرض لأي سوء.

وربما بفضل تلك البطولة الصغيرة، الذي كان مُرغمًا عليها لا أكثر، فإن شريف حظي بمكانة أفضل في أعين شعب الكنيسة وكهنتها، ونال من عطف أبونا أنطونيوس أكثر مما كان يتوقع. فالرجل قام بتعريفه، بشابة جامعية، يتيمة الأب، كان هو بمثابة والدها بالتبني. ولم يمضِ على تعارفهما سوى شهور قليلة، قبل أن يتم الزواج. والحقيقة أن شريف لم يشعر تجاه الفتاة، والتي كانت على قدر من الجمال يحسده عليه غيره من الرجال، بأي انجذاب على الإطلاق. وكانت مشاعره تجاهها، لا تتعدى القليل من العطف، إلا أنه رأى فيها زوجة مناسبة تمامًا. لا لشيء سوى أنها كانت قليلة الكلام، ومتواضعة في طموحاتها، فهي رضت بدخله الصغير، الذي يتحصل عليه من الكنيسة، وقبلت أن تنتقل للعيش معه في غرفة في بيت أسرته، وهذا كان أفضل ما يمكن أن تسمح له ظروفه به.

نادرًا ما غادر شريف الحي طوال هذه السنين، فهو اكتفى بتمضية معظم وقته في الكنيسة، أو التمشية في شارعها بين حين وآخر، مسليًا نفسه بالنظر إلى اليافطات الزرقاء التي كانت تتكاثر مع الوقت على جوانب "شارع الفريد". ولم يكن واضحًا من قام بتعليقات اللافتات، الأهالي أم الحي، لكن المهم أن الأمر قد حسم، بشكل ما، ولم يعد هناك خلاف على اسم الشارع بعدها.

المرة الوحيدة التي غادر فيها القاهرة، كانت لحضور عزاء عم علاء. الذي استضافهما في جزيرة المانجو قبل أعوام، تبدو بعيدة جدًا اليوم. وكان لتلك الرحلة فائدتين، ففي طريق العودة، نزل شريف في محطة كوم أمبو. وبحث عن المبنى القديم لشركة جده بولس، وتمشى في الشوارع المجاورة له بعض الوقت. ومع أنه لم يكن هناك في تلك الجولة القصيرة ما يستدعي الانتباه، فهو لم يجد أي أثر للأجانب الذين كان يتكلم عنهم جده، إلا أنها جلبت له قدرًا من الراحة، وكأنها نذر وفاه أخيرًا.

أما الفائدة الأخرى، والتي لم يدم أثرها طويلاً، فهي أن علاقته بعلاء تحسنت، إلى حدٍ ما، وتقابلا بعدها بضع مرات، لكن علاء الذي لم يتغير كثيرًا عن السابق، عبَّر أكثر من مرة عن استيائه مما يفعله شريف بنفسه، فهو يستحق أفضل مما هو فيه قطعًا. وفعل علاء ذلك بوقاحته المعتادة، التي كانت كفيلة، بالرغم من صدق نواياها، بصد شريف عنه، وتوقفت لقاءتهما بعد ذلك.

لم يتبقَ لشريف سوى علاقته بياسر، الذي كانت أعماله قد تعثرت إلى حد الإفلاس بعد الثورة، ومع ذلك ظل مشغولاً جدًا حتى بعد إغلاق شركته. كان ياسر يظهر حين يحلو له، ويختفي بعدها بالشهور، قبل أن يعود مرة أخرى حين يحتاج قليلاً من الفضفضة أو يغلبه الحنين إلى الماضي، فيسعى للقاء، بغية استحضار بعض من الذكريات، والضحك عليها. لكن شريف كان مع الوقت قد فقد ما تبقى لديه من صبر، وفجأة وبدون مقدمات، قطع علاقاتهما.

غير هذا، كان الحدث الأهم في حياة شريف في تلك السنوات، هو فكه أخيرًا لطلاسم لغز لطالما حيَّره. فعندما رُزِق بطفله الأول،

ومنحه اسم هاني، إكرامًا لذكرى صديق عزيز مات بالسكتة القلبية فجأة في سن الأربعين، أصرت أم الولد أن تناديه في البيت باسم آخر، هو بولا، وكانت تنهر شريف وأي من أفراد الأسرة إذا نادوه باسمه في شهادة الميلاد. ولبعض الوقت، ظن شريف أنها كانت غير راضية عن اسم هاني، أو اعتبرته نذير شؤم بسبب الموت المبكر لصاحبه، أو ربما كانت تريد لابنها اسما قبطيًا قحًا. وهو كان راضيًا بهذه التفسيرات، ولم يحاول سؤال زوجته عن أسبابها، إلى اليوم الذي أخبرته هي بحقيقة الأمر، بالصدفة. فالاسم المزدوج، كما قالت له، يقي صاحبه من أذى الأرواح الشريرة، والتي حين تصعد إلى الأرض في الليل لصب لعناتها تهتدي إلى الناس بأسمائها، فإن كان الاسم الحقيقي للشخص المقصود مخفيًا، لأن الجميع ينادونه باسم آخر، تضل الأبالسة طريقها إليه، ويتجاوزه الشر. وكانت تلك لحظة استنارة لصاحبنا، فسرت كل ما تعمد أن يتجاهل معرفته فيما مضى من حياته، فربما كل ما حدث له، لا يحتاج جهد كبير لتفسيره، سوى أنه لم يكن له سوى اسم واحد.

الست مرية، كانت قد أصرت على رفض أن تُعاد معموديتها. وأصبح قرار حرمانها من الأنشطة التطوعية في الكنيسة نهائيًا. ومع الوقت، توقفت عن الذهاب إليها تمامًا، وخاصة بعد أن وجدت في العناية بحفيدها مبررًا للاستغراق في روتين جديد، يبدو حاملاً لبعض الأمل في المستقبل، وأقل خوفًا منه، على غير المعتاد منها، فهو في النهاية أمل متعلق بحياة الآخرين، ومستقبلهم، لا حياتها هي.

تنيَّح أبونا أنطونيوس بعد ميلاد هاني بشهور قليلة، ولم يحضر شريف جنازته، والتي لم يحضرها سوى عدد قليل من شعب الكنيسة. فلسوء حظ الرجل، خرجت جنازته، في نفس الليلة، التي خرجت فيها جنازة شهداء ماسبيرو من الكاتدرائية. واحتار شريف قليلاً بين الجنازتين، ومع أنه كان قد توصل إلى حل وسط بأن يذهب إلى جنازة أبونا لبعض الوقت، وبعدها إلى الكاتدرائية، إلا أنه وبمجرد خروجه من باب العمارة، استوقف تاكسي، وطلب منه توصيله إلي ميدان مصطفى محمود. وهناك جال في حديقة الميدان عدة مرات، وهو ينظر في نجيلتها بتدقيق، وكأنه يبحث عن شيء بعينه. وبعد نصف ساعة، أصابه الملل، وقفل راجعًا إلى البيت، ونام راضيًا جدًا عما فعله، فهؤلاء لم تخرج لهم جنازة أصلاً، ولا أحد يعلم إن كان هناك أحد صلى عليهم أم لا.

بعد وفاة أبونا، قطعت الكنيسة الأجر الذي كانت تدفعه لشريف، والذي اتضح أنه كان يخرج من جيب الأب أنطونيوس الشخصي، كل هذه السنين. ومع هذا استمر شريف في قضاء معظم وقته في الكنيسة أو حولها. فهو كان قد استسلم منذ وقت طويل، فكل محاولات المقاومة في الماضي، ولو من باب إبراء الذمة، لم تصل به إلا لمزيد من التورط في حبائل ما ورثه عمن سبقوه، ممزوجًا بلعنة تمردهم أو سوء حظوظهم.

لم يكن شريف تعيسًا جدًا في النهاية، فهو لم يعد لديه ما يشغل باله في المستقبل، فكل معاركه بخصوصه قد حسمت بالخسارة بالفعل، وهذا أمر مريح. فالغد كان قد أصبح محسوبًا ومنتهيًا، إلى الحد الذي

معه كان من الممكن لشريف أن يدعي أن علاقته بالمستقبل تنحصر في تذكره، نعم، تذكر المستقبل. أما عن الماضي، فكان لا زال مفتوحًا على احتمالات عدة للاختيار بينها، ففيه ما يكفي له من الأحداث لحبك أقاصيص كثيرة، ومعظمها ظلَّ بلا تفسير، أو رابط منطقي بينها، والبعض الآخر كانت تفسيراته شديدة التفاهة من فرط عشوائيتها. لكن نسبة تلك العشوائية إلى غرض إلهي، كان يمنح شريف قدرًا من السلطة على الماضي، وعلى التحكم في مسارات أحداثه بأثر رجعي، بسردها كما يحلو له وإضفاء منطق جديد عليها في كل مرة. وهذا ما أصبح متعة شريف الوحيدة، والكنيسة مكانه المفضل لممارستها، ففيها كان يمكنه تصيُّد بعض من كبار السن، الذين لن يمانعوا في الاستماع له، ليحكي لهم كل ما حدث له، ويعيد عليهم حكايات كثيرة وحزينة، لم يعد قادرًا هو نفسه على التفريق بين الحقيقي فيها والمختلق. قصص عن أجداده، وتيهه، وسجنه، وأناس يموتون ويعودون للحياة، وغيرهم يموتون وهم ما زالوا أحياء، وكثير من تلك الأشياء الفظيعة التي مرت به ومن حوله. وكان دائمًا ما يختم حكاياته، التي تتغير أحداثها بحسب مزاجه وأمزجة المستمعين، بأنه لولا كل هذا، لما رجع إلى أحضان الكنيسة، فطرق الرب عجيبة وعصية على الفهم. وهو عرف منها طريقًا واحدًا فقط، وهو أنه لو لم يكن له رجاء في المستقبل، فعلى الأقل هناك أمل في الماضي، بالتأمل فيه وتدبر حكمته.

وكان من حوله يهزون رؤوسهم، منقسمين بين الشفقة والإعجاب، وهم يرددون: "ما أعجب طرقك يا رب".

لكي يحصل على شهادة "خلو موانع" تسمح له بالزواج، وتحت إلحاح من التعقيدات البيروقراطية للدولة، يجد شريف نفسه مضطراً، لأول مرة في حياته، للمثول أمام القس في الكنيسة، في جلسات اعتراف منتظمة، للبت في أمره. وبدافع غامض، ينطلق أمام القس في حكي سيرة حياته وحياة أسرته، بدءًا من "جعفر" جده لأمه في الزمن البعيد، وحتى الآن، ومراوغاً ضيق القس ونفاد صبره.

بطل عدمي يائس، يحفر -عبر نسيج متشابك من الحكايات- في التاريخ الاجتماعي والسياسي المصري المرتبط بتاريخه وتاريخ أسرته، ليقدم صورة لحياة الجماعة المسيحية، ومعاناتها أمام بيروقراطية المؤسسة والمجتمع المعادي وتعقيدات السياسة. حكايات تترك أبطالها أكثر حيرة مما كانوا. حيرة لا تترك لهم سوى جملة ختامية، كأنها توقيعهم النهائي على غرابة الحياة وصعوبة فهمها، هي: "ما أعجب طرقك يا رب!".

رواية جريئة ومتبصرة، هادرة رغم هدوء نبرتها، تمارس لعبة إخفاء وإظهار مدروسة في كل تفصيلة، من البداية وحتى النهاية.

*

شادي لويس، كاتب وصحفي واخصائي نفسي مصري. يمارس الكتابة في عدة مواقع متميزة كـ"معازف" و"المدن" و"المنصة". "طرق الرب" هي عمله الروائي الأول.

